محمد أسليم

سفر المأثورات

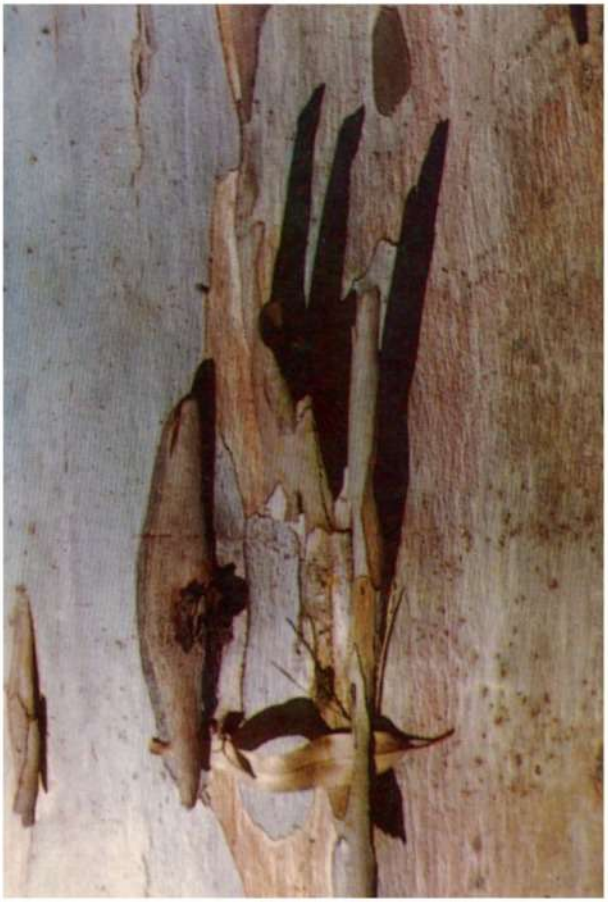

نص سردي

محمد أسليم

سفرُ المأثورات

نصٌّ سردي

الؤلف: محمد أسليم
الكتاب: **سِفر المأثورات**
صورة الغلاف: الفنان الفوتوغرافي المغربي خالد الأشعري
الطبعة الأولى: 1997
الإيداع القانوني: 1997/9
مطبعة المناهل - الرباط

نحَوَ إثنُوبُويطِيقَا طُورُوبريَّاندِيَّة

يصعُب على من تَطأ قدماه بلاد الطُّورُوبْرِيَّاند لأول مرَّة أن يتخلصَ بسُهُولةٍ من الانطباع الذي يستحوِذ عليه إلى أن يُوهِمه بأنهُ في إحدَى مُدُن جنوب المغرب الشَّرقي كألنيف، أو بُوذنيب، أو الرّيصَاني. ذلكَ أن الأهَالي الطورُوبريَّانديِّين يسكنون - مثل سُكان المدُن الآنفة - في تجمُّعَاتٍ معماريةٍ من الطّوب يحيط بالجهَات الأربع لكلٍّ منها سورٌ طوبي ضخم يتسعُ أحيانا إلى أن يأوي أكثر من 300 أسرَة ترتبط فيما بينها عَادة بقرَابَة الدَّم، ولذلكَ يحملُ كلُّ تجمُّع إسم الجدِّ الأوَّل المؤسس - الذي يضربُ عادة في عُمق التاريخ - بالإضَافة إلى إسم «غسر»، فيُقال: «غسر فلان» أو «غسر علان»... ولعلَّ المرءَ لا يحتاجُ إلى مجهودٍ فِكري كبير للوصُول إلى العَلاقة الموجُودَة بين هَذه الكلمة وبَين تسمِية «قصر» التي تدُلُّ في المدُن المغربية المشَار إليها على المسمَّى نفسِه، وهو ما كانَ من شأنه أن يشجِّعَ على افتراض إمكَان استيرادِ الطورُوبريَّانديِّين لهذا النّمَط المعماريّ من المغرب لولا هَذا الغيَاب التّام - في اللغَة والثقافة الطورُوبريَّانديتين - لما يُشجِّع على المضيّ في هَذا الاتجاه. بيدَ أنَّ الأمرَ لا يزدَادُ إلا تعقيدا بالنظر إلى كَثرة التشابهات:

- فالمرأة الطورُوبريَّانديَّة بدورها تلعبُ دورا حاسما في تنظيمِ الفضَاء والعَلاقاتِ الاجتماعية، وتمارسُ سُلطة قوية مِن داخِل احتجَاباتها المعمَارية واللغَوية والجسَديَّة بشكلٍ لا يجعلُ من غيابهَا المطلق سِوى الوجه الآخر لحضُورِها المطلق.

- والبلدَة تنزوي وسَط غاباتِ النخيل كمسَاحة مَنسيةٍ من العَالم: فهِيَ آخرُ محطة كودرُون، آخرُ عمودٍ كهربائي، آخر أنبوبُ ماء...

لكن! الآن فقط أدركُ حجمَ الغَباوة التي كانتْ تلُفُّنِي عندما اعقدتُ في البدايَة أنني - بالتفاتِي إلى تلك التمَاثلات وغيرها - كنتُ بصدَدِ اكتشافٍ كبير؛ فقد وضَعَ أحدُ الأهالي حدّا لأوهَامي بسُهولةٍ وأناقةٍ متناهيتين: اندَفعَ أمَامي بقامته القصيرة وهُو يتعثرُ في جلبابه الصُّوفي وأمرَني بالمشي خَلفهُ، وسَار إلى أن وقفَ بمفترق أزقة ضيقةٍ يتوسَّط حيّا سَكَنيا، ثم قال لي:

- أتَدرِي ما اسم هذا الحي؟

- لا.

- اسمُه «إبط الكلب»... انظر جيدا هَذه اللَّوحَات التي تعتلي أركانَ الأزقّة: فهذا الزُّقاق اسمه «سْتَرَاسْبُورْغ دُ سَانْ دُنِي»، وهَذا اسمه «كَابّي دِي سَانْ رَامُونْ»، وهَذا الدَّربُ اسمُهُ «زنقة الذبَاب»... أتستزيد؟

- لا.

- الأولُ يُفضِي بكَ إلى باريس التي لا تبعُدُ عنها الآن إلا ببضعِ مئاتٍ من الأمتار، والثّاني إلى لِشبُونة، والثّالث إلى مَدينة القصر الكبير (...) إنَّ هذا الحي مُتعدِّد الجنسيات، وهُو لم يحصل على هَذا الوضع التّوَحُّدِي إلا حديثا، وبذلك فأنت الآن في هَذه المدُن جميعا دُون أن تكون في أيّ واحدة منها.

صرفتُ صاحبي، ثم قصدتُ منزلا في قعر أحَدِ الأزقة لا يحملُ اسما، وكانت امرَأة جالسَة ببابه. سألتهَا باللغةِ المحليَّة:

- أَتَانْ أُورُو مِيكْ نِيكْ لاَوَا؟

- أجابتْ وهي تشِيرُ إلى دَاخل المنزِلِ:

- بُورُو بُورُو كِي يِّي كِي يَاوي.

دخلتُ إلى المنزل. إلا أنني لم أجد المرأةَ خَلفي لما التفتُّ. سمعتُ ضَوضاءَ تتسرَّبُ من غرفة مجاورَة لم يكن بداخِلها سِوى نافذةٍ وبابٍ، فتسللتُ، وفتحتُ النافذة فورا. أشرفتُ على سَاحة واسِعة توسَّطتْ أقواسا وسَوَاري بديعة النقوش والزَّخارف وامتلأتْ جنباتها بأفرَشةٍ فاخرةٍ وأواني بديعةٍ، تحلق حولها عشراتُ المتفرِّجين في جلبة من الغنَاء والضحِك والزَّغاريد والتصفيقات فيمَا كانت أردافُ جماعةٍ من الرَّاقصات العظام تهتزُّ بالتناوُب على عزفِ جوقين أحدُهُما مشرقي والآخر يبدو أنهُ محليٌّ شعبيٌّ. وفي ركن من السَّاحة جلسَ شيخ كان بيده مفتاحٌ سحريٌّ يتيح له التحَكم في إطلاق الضَّوضاء أو إيقافها واشتغال الكاميرَات المثبتة في أركان السَّاحة أو توقفها؛ فبينَ الفينة والأخرَى كان يتناوَلُ بحركةٍ بطيئةٍ مُتعبة كميات كبيرة من الأورَاق النقديةِ من فئة

مائةِ دولار، ويوزِّعها على الأهالي لينَقِطُوا بها الرَّاقصَات ثم ينصرفُ لغليونه مُثيرا سحبا كثيفة من حَواليه... سألتُ أقرب متفرِّج من نَافذتي، أجابني بلهجةٍ تلغرافية: «يتعلق الأمرُ بعُرس وَهمِي. الشيخ العجميُّ هو المخرج دَافيد سُول صاحب مُسلسَل ستارسكي وهوتش. هُو الآن بصددِ تصوير فيلمِه الأخِير».

فتحتُ الباب الدَّاخلي للغرفةِ، وكانَ أتاني منه صوتُ أغنيةٍ لمادُونا، فأفضى بي إلى ممرّ انتهى بي هُو الآخر إلى ساحَةٍ إلا أنها كانت - في هذه المرَّة - ممتلئة بكراسِي ومَوَائِدَ استدارَ حولها فتيان وفتياتٌ ورجالٌ ونساءٌ وقد جلسُوا جنبا لجنبٍ. تقدمتُ نحو باب كبير في آخر السَّاحة، فأفضى بي إلى الخارج لأجدَني وسط شارع نظيفٍ أنيق قبالته كشكٌ وبناية عالية. استدرتُ إلى الوَرَاء كي أمَوقعَ البابَ الذي خرجتُ منه، فكانت تعتلي وَاجهتَه لوحة زُجاجية كبيرة كتبَ عليها «مقهى الكوميديَا». التفتُّ شمال الشارع فتراءى لي نخيلٌ كنخيل الطّورُوبريَّاند، بيدَ أني تبينتُ فيما بعد أنني كنتُ في مَدينة الرِّباط.

*

* *

إذا سمعتَ طورُّوبريَّانديا يحدث آخر قائلا: «لقد وَخَزَني الفِردوسُ ليلة البارحة» وظننتَ أنه يحدثه في أمُور دينية أخطأتَ، لأنه إنما يخبرُه بازدياد مَولودة جديدةٍ، والشيءُ نفسُه يحصلُ إذا رأيتَ طورُّوبريَّانديّا يقول لآخر: «إني بصددِ استجماع رُوحي» لأنه لا يقصدُ

بهذا التعبير سِوى أنَّ بنتا له قد خُطِبَت منه وأنه الآن بصدَد الاستعدادِ لزفِّها لبعلها...

وإذا سألتَ طورُّوبريَّانديّا عن السِّرِّ في استعمال هَذه التعبيرات المجازية الملتوية أجابَك بمنتهى البرودَة: «كانت الأمُورُ دائما هكذا، وستظلُّ دائما هكذا»، وإن أنتَ استزدتَه معلوماتٍ أخرى كأن تسأله «كيفَ؟» أو «لماذا؟»، أجابَكَ: «هذا إفرَاط في التفكير الكثير»، وإن أضفتَ أي تعليق، شَزَرَكَ بامتعاض شديدٍ، ثمَّ كتم غيظه، وقالَ لك بمنتهى اللباقة والأدب: «أنتَ زنديقٌ». والواقع أنهُ لا يمكنُ فهم أمثال هَذه التعابير إلا بتسييقهَا، أي بوضعها في سياق اللغة والثقافة الطّورُوبريَّانديَّتَيْن:

فالمعجم الطّورُوبريَّاندي يشتملُ على أكثر من ألف مفردةٍ للدَّلالة عَلى جمال الأنثى من بني البَشر، مُنذ ولادَتها إلى مُغادرتها بيتِ والديها لتلتحقَ ببيتِ زوجها. وهَكذا، فلإطلاق صِفة «الجمال» على فتاة مَّا ستتدخّل في اختيار المفردَة المناسبة اعتباراتٌ كثيرة جدّا كسِنّ الفتاة، وشَعرها، وأحوال أسنانِها، وقامتها ولون بشرَتها، وحال خاطِرها لحظة إطلاق النّعتِ السَّابق... وبذلكَ تتغيرُ الكلمة الدَّالة على «جمال الأنثى» باستمرَار. ولإعطاء فِكرة تقريبيَّةٍ، مثلا، لإطلاق صفة جميلة على طفلةٍ لا يتجاوزُ عمرها أربع سنواتٍ، مقصوصُة شعر الرَّأس، وهي تضحكُ، سيقالُ: «أونوَا»، لكن ما تبكي هذِه الطفلة نفسُها حتى يتم اختيار - بدَلا من المفردة السَّابقة - كلمةَ «لاَلاَوَا» لوصفها بالجميلَة، وما يطول شعرُ رأسِها حتى تصيرَ «أولُوبُو» إذا ضحِكَت و«إِإِيِّي» إذا بَكت، وذلكَ

للدَّلالة على الصِّفة نفسها، صِفة جميلة. ومعنَى ذلكَ أن الطّورُوبريَّانديّينَ يتوفرُون على حِس جمالي رهيفٍ قلما توفّرَ عليه أقوامٌ آخرون...

وهذا الحسَّ الجمالي الدقيق هُو الذي يُجبِرُ المرأة الطّورُوبريَّانديَّة على تشديدِ الحراسةِ الذّاتية على نفسها ويُعفي أهلهَا من مُراقبة تصرفاتها خارج البيتِ. فإذا حدَث أن سوَّلَتْ لها نفسُها بمجرَّد إزاحة حجاب وجهها، وهيَ بالشارع، لتعرِضَ عَينيها أمام أجنبيّ، توفر أهلها دائما على إمكانيةٍ لمعرفة ذلك دون أن يحضرُوا المشهدَ أو يشي بابنتهم أحدٌ. ولذا، فبمجرَّد ما تعود إلى البيت يباغتونها بالسُّؤال: «لماذا أفقدتِ عَينيكِ سِحْرَهُمَا؟»، وهُو سؤالٌ يُستتبَع عادة باقتلاع العين الأكثر تضرّرا من رُؤية الأجنبي. والحكم نفسُه ينطبق على سَائر أعضاء الجسَد. لكن الأمُور - فيما يبدو - بدأتْ اليومَ تتغير... وكما أسرَّ أحد الطّورُوبريَّانديّين المرتدين لأهل مَاقِنطوشَة:

«لولا التقدّم العلميُّ والطبيُّ الذي مَكننا من استحدَاث دكاكين لبيع الأعضَاء المفصَّلة (أو قطع غيار جسم الإنسَان) لاستفحلتْ عاهاتُ العرج والقرع والعمي وسَرطان الثدي بين نسَائنا نظرا للتزَايد المتواصِل لعدد الأجانِب المقيمين بيننا»...

أثناءَ استعداد الطّورُوبريَّانديّ لزَفِّ ابنته، لا يتردَّدُ في بيع أنفس مُمتلكاته وأحبها إلى نفسِه، كالقطع الأرضية، وأشجَار النّخيل، وقطعان الضَّأن والإبل، والدرَّاجات العادية، والدرَّاجات النارية... وبذلك يمكنكَ دائما أن تدفعَ، نظير مَهر، ما لا يتجاوز خمسمائة دولار وتحصُلُ في

المقابل على ما قيمته عَشرة ألف دُولار أو أكثر من الحلي والمجوهَرَات وأحدث الأدَوَات المنزلية التي تصحبها الزَّوجة مَعها إلى المنزل ليلة زَفافها. لكن إذا سَوَّلت لكَ نفسُك بالإثراء عبر بطاقتي الزَّواج والطلاق فاقرأ على جسدك السَّلامَ. لن تفطن إلا والقوم قد حملوكَ متوجهين بكَ إلى السَّاحة العُمُومية لالتهامكَ في حفل أنثروبُّوفَاجيا طقوسية. ذلكَ أن الطورُوبريَّاندي يحبّ بناته لدرجَة العبادة، ولا يماثلُ هذا الحب عندَه إلا ولهُهُ بدرَّاجته العادية. ألا يقولُ المثل الطّورُوبريَّانديُّ: «ارْكَبْ درَّاجَتِي ولاَ تُهِن ابنتِي»؟

*

* *

إذا قلتَ لطورُوبريَّانديّ: «عِرْنِي درَّاجتك» أجابكَ فورا بِمَثَلٍ يقول: «أعيرُكَ ابنتي ولا أعيرُكَ درَّاجَتِي» ليضعكَ رأسا بمواجهة الإلهين «السُولُولُو» و«الوُولُولُو» مُطهِّرَي الدرَّاجات من الدَّنس الجنسيّ وضامني انتظام وُصُول جميع أنواع الدرَّاجَات إلى المنطقة بما فيهَا تلكَ التي ترتدُّ إلى بداية القرن الحالي، والأخرَى المبرمجة الصُّنع في معَامل فرنسا واليابَان ابتداءً من عام 2000. وفضلا عن ذلكَ، فهما اللذان يحيِّدَان جنس الدرَّاجَة الوافدة ويُمِدَّانِهَا بطاقة البقاء والخلود، فلا تتعرَّضُ أبدا لأعطاب ولا تحتاجُ إلى إصلاح أو صِباغة أو تغيير أجزَاء، وتصبحُ قادرة على حملِ إحدَى عشر راكبا فمَا فوق دفعة واحِدة، وبذلكَ يمكنكَ دائما أن تصادفَ - وأنت سائرٌ في الطريق - طورُوبريَّانديّا يسوق دراجته وقد حملَ فوق كتفيه طفلين، وأركَبَ

آخرين في مِقودِ الدراجة، وصَفَّ أمامه طفلين آخرين، مُردِفا وراءَه، في الوقتِ نفسِه، زوجَتَهُ وقد شدَّت هي الأخرى إلى ظهرِهَا طفلا وأجلسَت أمامها طفلا آخر تُرضِعُه من ثديِهَا... دُون أن تسقط الدرَّاجة أو تتمايل على الأقلّ. والسَّبب في ذلك يعُود إلى كون طقس «السُّولُولُو - وُولُولُو»، كما يرى الطّوروبوياندِيون، هُو أيضا ميثاق ولاء تنشدُّ به الدرَّاجة إلى مَالكِها إلى الأبد. وبذلكَ يستحيلُ على الفرد قيادة درَّاجة ليست في مِلكه، وبالتالي هذه العودَة الأبدية للدرَّاجة إلى مالكِها بعد أن تُسرَقَ منه. وبذلكَ - أيضا - يمكنكَ دائما أن تشاهدَ درَّاجة تنهضُ وحدَها وتنطلق جارية خلفَ صاحبِها، بعد أن يكونَ نسيها على مَقرُبة من دُكان أو مقهى، وهي تناديه باللغة المحليةِ قائلة: «آطَانْ زُورُو دَالاَ سُولُو وُولُو وَالِيكِي! آطَانْ زُورُو دَالاَ سُولُو وُولُو وَالِيكِي!»، وترجمتها: «سُبحان الإلهين! نسيتنِي ياسيِّدِي وأنا لم أصنع إلا لتركبَنِي! سُبحَان الإلهين! نسيتَنِي ياسيِّدِي وأنا لم أصنَع إلا لتركبنِي!»

*

* *

إذا سمعتَ طورُوبريَّانديّا يحدِّث آخرَ ويقول له: «اركب شيطانكَ» فاعتقدتَ أنه يحدثه في أمور دينية أخطأتَ، لأنه إنما يأمرُه بركوب حماره لاغير. وإذا ناداكَ أن تعالَ «يا رأسَ الحمار» ورفضتَ الامتثال لأمره أو تشاجرتَ معهُ اعتقادا منك بأنه أهَانكَ أو شتمكَ اعتبرتَ مُنذئذٍ زنديقا. وإذا سألكَ أحدُهُم عن كيفية وُصُولك إلى المنطقة وقلتَ له: «عَلى متن طائرةٍ» أو «على متن باخرةٍ» لم يفقَه مِن

كلامِكَ شيئا، وإذا فطنَ لقصدِك صُدفة بادر فورا بتصحِيح جَوَابك وإرغامكَ على تكراره على مَسَامِعِه قائلا: «قلْ: أتيتُ على متن حمار الماء، ولا تقلْ: أتيتُ على متن باخرةٍ»، «قل: أتيتُ على متن حمار الهواء، ولا تقل: أتيتُ على متن طائرة». وإذا لم تفعل اعتُبرتَ زنديقا أيضا لأن سائر وسَائل النقل ليسَت في نظر الطورُوبريَّانديِّن سِوى فصائل حمير: فالدرَّاجَة العادية، مثلا، يُسمونها «حمار الرِّيح»، والدرَّاجة النارية «حمار الدُّخَان»، والبَاخرة «حمار الماء»...

وراء إطلاق الطورُوبريَّانديِّين تسمية «الشيطان» مجازا على الحمار تختفي «فلسفةٌ» بكاملها قادَهم إليها تأملٌ طريفٌ وذكيٌّ في التبَاسِ التَّرَائي الذي يُسَلطه هذا الكائنُ على رائيه مِن بعيدٍ: فهو حينما يكون مقبلا يأخذ هيأة كَائن غريبٍ جدّا: رأسٌ تدلى تحته مُباشرة سَاقان طويلان دُون أن يكون لذلكَ الرَّأس صدرٌ أو بطنٌ، ولذلكَ فهُم يُطلقون عليه «اسم العُلويّ». وحينما يكون مُدبرا يأخذ أيضا هيأة كائن غريبٍ لكنه مختلف عن الأوَّل: يتراءى بهيأة مُؤخِّرَةٍ تدلَّى تحتها مباشرة ذيلٌ وساقان دُون أن يعتليهما بطنٌ ولا رأسٌ، ولذلكَ يطلقون عليه نعتَ «السُّفلي». وعَلى أساس هذا التقابُل الأولي يُصَنِّفُ الطورُوبريَّانديُّون جميع كائناتِ العَالم وأشيائه، ويضعون كُلا منها في مَكانه المناسب بكيفيةٍ فضلا عن كونها تجعلُ من هذا التقابل أبا التقسيمات لأنَّ ما مِن كائنٍ أو شيء إلاّ ويجدُ موضعا لهُ في رأس حمار أو مؤخرتهِ، فضلا عن ذلكَ تجعلُ الحمارَ يلعبُ دَورا حاسما في تنظيم الفضَاء والعَلاقات الاجتماعيةِ ويمارس سُلطة قوية تجعله أحدَ المداخل الأساسِية لفهمِ المجتمعِ والثقَافة الطورُوبريَّانديَّين.

*

* *

إن كنتَ أجنبيا، فإنَّكَ حالما تطأ إحدى قدماك أوَّل مدينةٍ طورُوبرويَّانديّة ينهملَ عليكَ الأهالي بعُرُوض زواج بإلحاح شدِيدٍ قد يدفعك أوَّل وهلة إلى اعتقادِ أنَّ الأمرَ يتعلق بأزمة شبيهةٍ بتلكَ التي أعقبت الحربين العالميتين بأورُوبا، لكن هَذا الاعتقادَ سُرعان مَا سيُصادف تنحية من قبل الطورُوبريَّانديين بالدِّقة والأناقة نفسَيهما المعهُودتين فيهم: فإن قبلتَ العرضَ اعتُبرتَ على الفورِ زنديقا، وإن رفضتهُ كنتَ زنديقا أيضا، وإذا لم تقلْ أيَّ شيء فأنت - عندهُم - زنديق أيضا. وسواءٌ أقبلتَ دُون أن تقبل أم لم تقبل وأنتَ قابلٌ عرضَ الزوَاج فإنكَ عندهُم زنديق!، ولن ينفعكَ أيُّ تعقيب على هذا النعتِ الذي يلصقهُ بكَ عارضوا الزَّواج، كأن تقولَ: «هذا غير مَعقول» أو «هَذا غير منطقيّ»، لأنَّ تعقيبكَ سيصطدمُ حتما بجوابٍ من الطبيعة نفسِها: سيقال لكَ: «هذا إغراقٌ في التفكير الكثير (...) أنتَ زنديقٌ!»...

*

* *

عندَما يقولُ لكَ الرَّاهبُ: «اذهبْ، فإنَّكَ تفيضُ كَلاما»، فإنه يكونُ قد بث سَلفا في مسألةِ إقصائك أو تأهيلك. فإذا أحسستَ عقبَ هذه الكلمة بأن العُنف الجسَدي قد تحوَّلَ داخلك إلى لغةٍ حتى أصبحتِ الكلمة المناسبة لجميع المواقِفِ والسِّياقات تنسابُ منكَ انسيابَ الوحي فاعلم أنه قد أهَّلكَ للمقَام الموالي. وعَلامَة ذلك أن لا

يجدَ القومُ أنفسهُم أمَام كل كلمةٍ تتلفظ بها إلا كمَا يجدُ الطّائر نفسه في قبضةِ فخ أو شراكٍ. فإذا رَفعُوا، مثلا، سِعر مواد كشفرة الحِلاقة والخبز وجدتَ نفسَك قد عمدتَ إلى إهمال اللحية وأكل الهوَاء، وإذا استعَار منكَ طورُوبريَّانديٌّ مبلغا ماليا مُهمّا ثمَّ رحَل نهائيا عن المنطقة دُون أن يُسَدِّدَ ما عليه من دينٍ وأردتَ الانتقامَ منهُ اكتفيتَ بإرسال كلمةٍ واحدةٍ لهُ مع رسُول، فمَا يتلقاها غريمك حتى تبترَ إحدَى يديه أو رجليه، وإذا ضُبِطتَ متلبسا فوق امرأةٍ أو حمار ليسَا في ملككَ قلتَ، مثلا، «إنما هذه [=المرأة] حمارٌ، وهذا [=الحمار] أبي... فلا يتردَّد القومُ لحظة واحِدة في تصديقك. والسَّببُ في ذلك كله هُو أنكَ تكونُ حينئذ تتكلمُ من عُمق التّاريخ واللغة الطورُوبريَّانديَّين: فاللحية عنوان مُصنفاتٍ تاريخيةٍ خاصَّةٍ بحقبةٍ تاريخيةٍ بكاملهَا، كما الأوكسيجينُ، والمئزرُ، والعقال، والهوَاءُ... عناوين لمصنفاتٍ تاريخية خاصَّةٍ بحقب تاريخية أخرى، ذلك أن الطورُوبريَّانديّين لا يكتبونَ التاريخ بتسجيلِ تعاقب الأحداثِ والوقائع، وإنما يُدوّنونه بأحوال الجسَد والمعِدة والطبيعَة خِلال حكم كلّ إمبراطور: فحينمَا صعَدَ الإمبراطورُ الأوَّلُ فرضَ إهمال اللحية فأهمِلتْ إلى أن جاء الإمبراطورُ الثاني فحظرها وأمرَ القومَ بارتداء القبَّعة، ثمَّ قال: «السَّمَاءُ سَودَاء» فظلت سَودَاء إلى أن أسقطهُ الإمبرَاطورُ الثالث فقالَ: «لا. ليست السَّمَاءُ سَودَاء، بل هي بيضَاء» وأمرَ النساء بارتداء المآزر وفرَضَ على الرِّجال أن يرتدوا التنوراتِ القصيرة، ثمَّ جَاءَ الرَّابع فقال: «اذهَبوا فأنتم العُرَاة» فنبذَ القومُ المآزر التنورَات وجابُوا الأرضَ عُراة حفاة إلى أن جاء الإمبرطورُ

السَّادسُ وأمر النسَاء بارتداء التنوراتِ القصيرة والرِّجال بارتداء المآزر والخفين...

والكلمة، عند الطّورُبريَّانديّين، مجالُ حِس لا يُضاهيه إلا الحسُّ الجمَالي. وإذا كَان هذا الحسُّ اللغوي هو السَّبب في عودَة غريمك - فور تلقفه كلمتكَ - إلى المنطقة أعمى أو كَسيحا، فإنَّ الرهافة اللغويَّة نفسَها هيَ التي سَتتيحُ لجميع الأهَالي أن يتعرَّفوا حَدسا على القصَّة بكاملها بمجرَّد مُشاهدَتهم ذلكَ الغريم ولو لم تطلع أحَدا عليهَا، وبذلك مَا أن تسأل أحدهُم، حتى وإن كان مجرَّد طفل لم يتجاوز عُمره السنتين، عن صَاحب العَاهَة حتى يوافيكَ بتفاصيل القصَّة بشكل يجعلك تشكُّ فيما كان ذلكَ الطفلُ هو أنتَ أم أنك هو... يقول لك: «لقد استعارَ منك فلان بن فلانة مبلغ كذا دولار، وفرَّ من المنطقة فأرسلتَ - أنتَ - إليه كلمة مع أوَّل حمار هواء يُقلع، فما تلقّاها حتى عاد أعمى كَسِيحا...»، وهذَا ينطبقُ مع المثلين الطورُوبريَّانديّينَ: «لا إجماعَ خارجَ الإجماعِ»، و«يستحيل أن تخدَع طورُوبريَّانديّا أو تغبنه».

إن هذا الحسَّ اللغويَّ الدقيق هو الذي يجبر الطُّورُوبريَّانديّينَ عَلى الاستقامة في السُّلوك، وتجنب الكذِب، والسَّرقة، والوشاية، والنمِيمة، والتطَاوُل على ممتلكاتِ الغير. كذلكَ، هذا الحسُّ هو الذي يُفسِّر النباهة الكبيرة للطورُوبريَّانديّينَ في التكلم بجميع اللغَات الأجنبية فِطرة ودُونما أيّ حاجة لتعلمها أو المرُور بالمعهد العالي للغات الأجنبية، وبذلكَ يمكنكَ دائما أن تشاهد طِفلا لم يتجَاوز عُمره سبع سنواتٍ وهو يجرُّ وراءَه قطيعا كامِلا من أهل ماقِنطوشَةَ ذَوي البشرة

البيضَاء يدلهم وسَط غاباتِ النخيل والمآثر التاريخية مُكلما كل سائح منهم تكليما بلغته الخاصَّة بظواهرها وبواطنها...

*

* *

ما إن رَآني الرَّاهبُ حتى ضحك إلى أن استلقَى على قَفَاه ثمَّ أخذَ مِخلاة فارغة وقرَأ عليها نشيدا دِينيا، وعلقَهَا على عُنق الحمَار دُون أن يضَعَ فيها شعيرا، ثم قالَ لِي: «لكَ علينا من اليَوم ضِيافة سبعة أيام يمكنكَ بعدَهَا أن تسأَلنا عما تشاء»...

أدخَلَني مُضيفي إلى منزله وأجلسَني في رُكن ساحَةٍ واسعة تتوسَّط غُرَفا عديدة، ثم أمرني بلهجةٍ خشنةٍ حادة:

- الزم جلستَك هذه داخلَ مكانك هذَا، ثمَّ انظر ما يليكَ فقط، واستنشق منَ الهوَاء ما يليكَ فقط. وإن أنت استدرتَ يمينا أو شِمالا، فإنكَ تكون قد تعدَّيت حُدودك، وإن تتجاوز حُدودكَ فلن تظلمَنَّ إلا نفسك!، وما فعلتُ حتَّى نادى على مائدة كبيرة وجاء بماء غسلت به يديَّ، ثمَّ أمرني بالتهيؤ للأكلِ فيما انصرفُ هو متنقلا بينَ المائدَة والمطبخ إلى أن ملأ صفحةَ المائِدَة بالأطباق والصُّحُون الفارغة والأباريق والكؤُوس الفارغَة أيضا، فجلسَ بجانبي وقرَأ نشيدا دِينيا، ثم أمسكَ بين يدَيه دائرةً من الهواء، قطّعَها كما لو كانت خبزَة، وانصرف يمسِكُ الكسرَات الوَهميَّة ويبلل الواحدةَ منها تِلو الأخرَى في الصُّحُون الفَارغة ثم يُعيدُها إلى فمه ويأخذُ في مَضغ الهواء بنَهَم شديدٍ وهُوَ يستضيفني قائلا: «كل ولا تخجَل. تصرَّفْ كأنك بين ذويكَ، كأنَّكَ في بيتِك»،

فانصرفتُ بدَوري إلى تقطيع خُبزٍ وهميّ أبللُهُ في الصُّحُون الفارغَة، وأحشُو به فمي ثمَّ أمضغ الهواء، ولم أتوقَّفُ إلا بعدَ أن توقَّفَ مُضيفي. أثناء مُغادرتي المنزل خرجتُ مُجهداً نفسي في ترسيخ قدميَّ في الأرض كي لا أطيرَ من كثافة الهوَاء الذي امتلأ به بطني. ببابِ البيت وَدِّعُنِي مُضيفي بحرَارة كبيرة وهُوَ يسألني:

- ألم تجدْني كريما؟

أجبته دون أن أكلِّفَ نفسي عناءَ أي تفكير:

- بَلَى. بَلَى.

- وإذن، فبلغ ذلك لأهلك وذويك؛ قل لهم كنتُ بين قوم لا مثيلَ لهم في الضيافة والكرَم...

- حَاضِر. حَاضِر، كلكم «حاتم طائي».

فانصرفُ وهو يضحكُ إلى أن استلقى عَلَى قَفَاهُ...

حيرني كثيرا أمر اللهجة الصارمة التي حدثني بها مضيفي، لاسيما عندما أدركتُ من خلال ما قدَّمَه لي أنني كنتُ مُنزَلا عنده منزلةَ «استجماع الرُّوح». إلا أن حيرَتِي سرعان ما تبدَّدَتْ لما التفتُّ إلى تصرُّف نسائه وبناته طيلة وُجُودي في البيت: فبالرَّغم من توَاجدنا جميعا داخلَ محل واحد وسَاحة واحدةٍ، فإنهن كنَّ بدورهن لا ينظرنَ إلا ما يليهن ولا يشممنَ من الهواء إلا مايليهنَّ، وإذا اضطرَّت إحداهن إلى المرُور أمَامي لم تفعل ذلكَ إلا وهي تقفزُ في الهواء كأنها تتخطى حبلا خفيا يمتدُّ أفقيا من عيني إلى نقطةٍ بالحائط المقابل لهمَا، وذلكَ حتى

لا يقعَ بصري على أيّ قطعةٍ من جسدها الذي لم يَكن يسترُه سِوى ثوبٍ شفافٍ يُسَرِّبُ الداخل بكلّ تفاصيله...

سألتُ مُضيفي:

- لماذا لا تمرّ نساؤك وبناتكَ إلا قافزاتٍ في الهواء؟

أجَابني بدُون تفكير:

- إنهُنَّ محتجباتٌ.

- إني ما أرَى الغاية التي تريدُون نيلهَا بهذا الشَّكل إلا مُنقلبة إلى ضدِّها!

- أنتَ زنديقٌ!

- نعم، نساؤكنَّ محتجباتُ الوجوه، لكنهنَّ سافراتُ المؤخِّراتِ.

- تُولَدُ المرأةُ عندنا ثيبا وتموتُ بكرا!...

الآن فقط أدركُ حجم الغباوة التي كانت تنطقُنِي وأنا أستدرجُ مضيفي إلى هذهِ المسَاحة من الكلام! فقد كانَ تحقيق أيّ تواصُل مَعه في تلكَ اللحظة مُستحيلا ما لم أعتبر تعدُّد الواجهاتِ التي كان يُراعيها مُضيفي امتثالا لسُلطة نسائه؛ فهو كَان - في آن واحدٍ - يسعى إلى وقايتي من الأنثروبُوفَاجيا الطقوسِية، ومنحي وضعا اعتباريا محدَّدا داخِل الخريطة الإثنية المحليَّة، وإصدار حُكم في حقّي باجتياز «طقس التّطهير» بشقيه الدِّيكي والكلبي:

يتعلقُ الأمرُ في «طقس التطهير الدِّيكي» بتحويلِ الأجنبي إلى ديكٍ من قبَل السَّاحر رئيس المدينة، وذلكَ لتطهيره - حسب الاعتقاد الطّورُوبريَّانديّ - من الدَّنس الجنسيّ المحتمل أن ينشره هَذا الغريبُ في المدينة. بتعبير آخر، إنَّ هذا الطقسَ هو أيضا طقسُ «سُولولو - وُولولو»، لكنَّ موضوعه الآن ليسَ درَّاجة عادية وإنما رَجُل أجنبي ساقته الأقدارُ ليقيم بينَ الأهَالي. ويكمن سرُّ هذا الطقس في الوُصُول بالوافد الجديدِ إلى مَقام التوفيق بين حجمِ اللذة الجنسية الإنسانية - التي لا تُستَأصَلُ منه - ومُواضعاتٍ حيوانية، هيَ هيأة الدِّيك في هذه الحالة. بعبارةٍ أخرى، يجبُ أن ينتهي الطقسُ بالأجنبي إلى تمكنه من الحصُول على الإشباعِ الجنسيّ نفسِه الذي يناله في هيأتِه البشرية، لكن في زمنٍ أقل، في زمنٍ بحجم المدة التي يَستغرقهَا الدِّيكُ في نيل لذته من الدجاجة.

وللإشارة، فإن الثقافة الطُّورُوبريَّانديَّة غنية بطقوس مِن هذا النوع، يمارسها الطّورُوبريَّانديُّون أنفسُهم على أبنائهم وبناتهم وحيواناتهم، ك «طقس التطهير الدِّيكي»، وطقس «التطهير الحِماري»، و«طقس «التهير الذُّبَابيّ»...، وكلها تستهدف غايَة واحدة هي إحدَاث تحييدٍ جنسي لدَى الذكور والإناث...

ففي طقس «التطهير الحماري»، مثلا، يتعَلق الأمرُ باستئصال الدَّنَس الجنسي المحتمل أن ينشرَه هذا الحيوانُ في المدينةِ، وذلكَ بتحييد جنسه. ولهذا السَّبب، ما من أنثى تصلُ إلى المدينةِ إلاّ ويتمُّ

تحويلها - عبر الطقس السَّابق - إلى ذَكَر، ولِذا يستحيلُ أن تجدَ أتانا واحدة بينَ عشراتِ آلاف الحمير الذين تعُجُّ بهم المدينة. قلتُ للرَّاهب:

- لماذا تنعدمُ إناث الحميرِ بالمدينة؟

- تلكَ طريقتنا في تطهير نسَائنا وأطفالنا.

- لكن ألا ترى أنَّ ذلك يجبر البهَائم على تعاطِي اللواط؟

احمرَّت وجنتاه كأنّه ضُبط متلبسا، فأجابَ مرتبكا:

- إنَّ ذلكَ عندنا أيسرُ من الحبلِ والولادة...

وقد أظهرَت باحثة أوروبيةٌ، من خِلال نتائج استطلاع سِريّ للرَّأي، أجرَتهُ في الموضوع، أن طقوس التحييد تؤدِّي إلى نشأة تمثلاتٍ غريبة، لكنها شديدة الدَّلالة، لدى الجنسين بشأن كل ما يتعلقُ بالجنس. من هَذه التمثلاتِ، مثلا، أن الفتاة تظلّ إلى قبيل سنّ البلوغ تعتقدُ أن الرَّجُل لا يتوفر على قبعةٍ، وأنه يملك - بالمقابل - عضوا مماثلا لضريح المرأة. أما الحملُ عند هَذه الأخيرة، فيتمُّ بمجرَّد مُداعبة رجل إياها، أو مُعانقته إياها، أو نومِه بجانبها، أو اشتهائِه إياها، أو تفكيره فيهَا... وإلى حُدُود سِن العشرين يظلّ الفتيان الطّورُوبريَّانديُّون يتصوَّرُون المرأة على الشّكل التالي: إنها تملكُ، مثل الرَّجل، قبعة، وتحمل بمجرَّد نومها بجانب رجُل أو اشتهائه إياهَا أو إطالته التفكير فيها، أمَّا وضعها للجنين فيتم من العجز وليس من الضَّريح. وقد بينت البَاحثة في الدِّراسة السَّابقة أن هذه التمثلاَت ترتكزُ على استيهام خَصَاء مُزدوج يخصي فيه كلُّ جنس الجنسَ الآخر أوَّلاً ليُخصِي نفسَه

بعد ذلك كترتّبٍ حتميّ لانتفاء عُنصر المغايرة الفيزيولوجيةِ عَلى مُستوى التمثل. وقد افترضت الباحثة إمكان استفحال سُلوكات اللواط والسِّحاق وَوطء الحيوَانات بين الطّورُوبريَّانديّين بالرغم من عدَم جهرهم بذلكَ، ودَّعمَت افتراضها بالتنبيه إلى طوفَان ذَوي البشرة البيضاء، من أهل ماقِنطوشَة، الذي يجتاحُ المنطقة دَوريا...

أمَّا إنجاز الطقس، طقس «التطهير الدِّيكي»، فيستغرقُ 22 مَرحلة أهمّها على الإطلاق المرحَلة الأخيرة، وتتمُّ على النّحو التّالي:

يجلسُ السَّاحرُ رئيسُ المدينة، بعدَ أن يكون قد حوَّلكَ إلى ديكٍ، وهو يمسكُ بيدِه عدَّادا أوتوماتيكيا، ثم يطلقُ صفيرا مُعطيا لكَ بذلكَ إشارة الانطلاق نحوَ دَجاجة، تكون قد وُضِعت مُسبقا في مُتناولك، لتقضي وطَرَكَ منها في وقتٍ محددٍ لا يتجاوز عموما نِصف دقيقةٍ إلى دقيقةٍ واحدة، وذلكَ بمعدل 60 مرة في اليَوم ولمدة شهر بكامِله، أي المدَّة التي يجمعُ الطّورُوبريَّانديُّون على ضرُورتها للترويض. وتستمدُّ هَذه المرحلة أهميتها مما يستتبعُها من تقنيناتٍ صارمةٍ تتعلق برُخصِ التغيبّات، ومدَّة الإجازات المسمُوح بها، وإمكانياتِ الانتقال... فمثلا، إذا كنتَ تقيم أصلا في مدينةٍ تبعُدُ عن منطقة الطّورُوبريَّاند بـ 4000 كيلومتر، فإنه لا يرَخّص لكَ بالتغيُّب إلا مرَّة واحدة في كلّ ستة أشهر. أمَّا مدة الغياب، فتحدَّد عموما في تسع إلى عشر ساعاتٍ: ثمانية للسَّفر بالطائرة ذَهابا وإيابا، وسَاعة واحدة أو سَاعتين للإقامَة بين أهلكَ ونِسائك...

*

* *

في بداية اجتيازي لـ «طقس التَّطهير الكلبي» أحسستُ أنَّ وضعي قد تحسَّن نسبيا في المدينة، إذ لم يعُد أيّ واحدٍ ينعتني بـ «الزِّنديق»، وانكشفت الحجُبُ بيني وبين النسَاء فأخذن يتوافدنَ على بيتي بالقوافِل ويجالِسنَني في مقاهي سرِّية ويُشاركنني التّدخين والسُّكر وسَائر حماقاتي... غير أنّي فطنت فيما بَعد إلى أنَّ ذلك الوضع كان مشرُوطا بمواضعَات:

عندما كنت أغرقُ في النوم، كانت تقصدني أسرَاب تقصدُني لنهب جسَدي. في اليَوم الأول أصبحتُ بلاذيلٍ، في اليَوم الثّاني بلا أذن، في الثالث بلا رِجلٍ، بلا عين، بلا أنف، بلا رأس... ولستُ أدري ما إذا كنَّ يأتينني من تلقاءِ أنفسهِنَّ أم أن رجالهن همُ الذين كانوا يبعثون بهنَّ إلي للإيقاع بي. كلّ ما أعرفه هُو أنه لم يكن لي الحقّ حتى في الإشعَار بالنهبِ الذي كانت أعضائي تتعرَّض له، فأحرى الاحتجاج على ذَلك. كان عليَّ أن أتراءى في كل يوم كلبا بالهيأة التي سَوانِي عليها السَّاحرُ رئيسُ المدينة مُنذ المرحلة الأولى مِن مرَاحل الطقس الاثنين والعشرين، وكان ذلك يستوجب مني ضربَ حرَاسةٍ ليلية مشددة على جسدي وأنا نائم.

سألتُ أوَّل امرأة ضبطتُها، وقد عرفتُ من ملامِح وجهها أنهَا لم تكن إلا المرأة التي كانت تجلسُ قربَ الباب القعري يومَ قادني الطورُوبريَّانديُّ القصيرُ إلى الحيّ المتعدِّد الجنسيات: «لماذا تنهبين ذَيلي؟»، فاندفعَت أمامِي بقامتها القصيرة وهِيَ تتعثرُ في مئزرها الطويلِ

وأمرَتني بالمشي خلفهَا إلى أن وقفتْ بمفترق الأزقةِ نفسه الذي سبقَ للطوروبريَّانديّ القصير أن قادَني إليه، ثمَّ سألتني:

- أتدري ما اسمُ هذا الحيِّ؟

- لا.

- اسمه إبِطُ الكلبِ...

عرفتُ أنها ستأمرني أن أنظرَ إلى اللَّوحَات، وستقولُ لي إنَّ الحيَّ كان هو الحيّ المتعدد الجنسيَاتِ، وإنه يُفضي إلى مُدُن باريس وبرشلونة والقصر الكبير...، وإنني كنتُ بهذه المدُن جميعا، ولذلكَ صَرفتها وقصدتُ المنزل الكَائن بقعر الزّقاق الذي لا يحمِلُ اسما، فكان الطورُوبريَّانديُّ القصيرُ جالسا ببابه. هَممتُ بسؤاله، لكنه بَادَرَ بإجابتي قبلَ أن أتكلمَ - وكأنه كَانَ على اتصالٍ سريّ بما يجري في دِمَاغي - وهوَ يُشيرُ إلى داخل المنزل:

- بُورُو بُورُو كِي يِّي كِي يَاوِي.

دخلتُ إلى المنزل. سمعتُ الضوضَاء. فتحتُ النافذَة. أشرفتُ على السَّاحة الواسِعة. في رُكن مِن السَّاحة جَلس شيخ كانَ بيده مفتاحٌ سحريٌّ لإطلاق الضَّوضَاء أو إيقافها. سألتُ أقربَ مُتفرّج من نافذَتي. أجَابَ بلهجة تلغرافيةٍ. فتحتُ الباب الدَّاخلي للغرفة. تقدَّمتُ نحوَ البَاب الكبير الموجُودِ في آخر السَّاحَة، فأفضَى بي إلى الخارج، فإذا بي وسَط مدينة الرِّباط. انصرفت أتأمَّل حُشودَ أجسَاد المارَّة بالشارع

فالتفتُّ لأول مرَّة إلى أن أعدَادا غفيرة منهم كانت مِثلي مُركبة مِن أعضَاء مجزأة بينها تنافرٌ صاخبٌ.

لما كانت أعضَائي تتعرَّض للنهب ولم يَكن لي الحقّ حتى في مجرَّد الإشعَار بسرقتِها، فأحرَى الاحتجاج على ذلك، كان الحلّ الوحيد أمَامي هو شراء أعضاء من السُّوق السَّوداء، منَ الدّكان السِّريّ الوحيد الذي يبيعُ الأعضَاء الحيوَانية والبشريَّة مجزّأة. لكن في الدُّكان كان بالإمكان العثور عَلى أعضَاء كلّ الحيوانات باستثناء أعضاء الدِّيكِ والكلبِ، وبذلكَ لم يكن أمَامي أيّ خيار آخر عَدا تعويض أعضائي المنهوبَة بأعضاء حَيواناتٍ من أجناس مجاورَة للهيأة التي كنتُ بها، وهَذا هُو السَّببُ في كوني الآن أمشي بحافر حمار وذيل كبش وفرو عِجل... لذا، إذا رأيتم - أينما كنتم - شخصا بهيأة مُرَكبة كأن يكونَ له حافِر بَغل أو رأس هِرٍّ أو أذن حمار...، فاعلمُوا أنه بصدَدِ اجتياز «طقس التطهير الكلبي»، وأنه إمَّا على أبوَاب الأنثروبوفاجيا الطقوسِية أو على مَشارف التثبت في النسابة الطورُوبريَّاندِيَّة بعدَ أن يجتاز «طقسَ المرأة المعَلقة في الهوَاء». أمَّا هُم، فكيفَ حَصلوا على هَيآتٍ مماثلة؟ بل أيتعلقُ الأمرُ فعلا بحُصُول على تلكَ الهيآتِ أم أنه لا يعدُو مجرَّد تجلٍّ للعبةٍ طوروبرياندِيَّة تستقرُّ في أعماقنا جميعا؟

سِفرُ المأثُورَات (1)

إذا استيقظتَ يَوما ولم تر حيثما وليتَ وجهكَ إلاَّ أطفالا يُهرولونَ جماعاتٍ جماعات وهُم يغمغمُون كأنهم سَحَرة يقرأون عَزائم سِحرية أو أرانبَ تصارعُ الجوعَ بنهم شديدٍ، فاعلم أنكَ قد وصلتَ إلى بلاد الطّورُوبريَّانديينَ، وأنَّ اليوم يوم امتحان، وما أدراكَ ما الامتحانُ بهذا البلد السَّعيد. يومٌ يقشعرُّ له جلدُ المرء فوق عظمِه، ويشيبُ رأسُ الرضيع وفمُه بثدي أمِّه، ويبحَث المرءُ عن مَركَبٍ ليفلت بجلده وما مَركَبٌ بمقِلّه... ثمَّ اعلم أن الصِّغار ما تطأ أقدَامُهُم عتبات المدارس حتى يتمّ اقتيادهم صفا صَفا إلى حُجُرات واسعةٍ انتصبَ أمامَ سبورة كلّ حجرة منها شُرطيّ وخلفَ صفوفها شُرطيّ كأنهما حَفظة كِرَامٌ، حتّى إذا استوَى التلاميذ على المقاعِدِ أوتوا بأسئلةِ الامتحَان على شَكل تمائمَ تطلعُ كلُّ تميمةٍ على صاحبها بحظ مخالفٍ: هَذا حمارٌ وهذا أرنبُ، هذا هرٌّ وهذا ثعلبُ... فطوبَى ثم طوبَى لمن جاءه حِرزُهُ بصُورَة السَّاحر أو الرَّاهب، والوَيلُ كله لمن أتته تميمتهُ بصُورة غيرِهما. ومُهمَّة الشرطيين ليسَت مَنع الأطفَال مِن أن يتنَاقلوا أجوبَة الاختبار أو يخرجُوا الدَّفاتر، بل هي بالضَّبط إرغامُهم على فتح الكتبِ ونقل الأجوبة منها. غير أن الأمرَ هُنا لا يعدُو مجرَّدَ خدعَةٍ طورُوبريَّانديَّةٍ

أصيلةٍ، ذلكَ أن الطفلَ متى أخرجَ دفترَه لم يجد فيه شيئا مما كان قد قيَّدَهُ فيه طوال السَّنة لأن ما كتبهُ يكون قد مُسخ على صُورة السُّؤال نفسِه بفعل ما قُرِئَ من عَزائم سِحرية على امتداد المسَافة الفاصلة بينَ المنزل والمدرسةِ. وبذلكَ، فإذا طلعت تميمتهُ بصُورة حمار، لم يجدْ في أي دفتر فتحَه سِوى صُور حمير، منهُمُ النائمُ، ومنهمُ المقبلُ، ومنهمُ المدبرُ... وإذا طلعَت عليه صُورة امرأة، فإنَّ ما من كتاب يفتحُه إلا ويجد صفحاته مُحتشدة بصُور نساء منهن مُرَقِّصَة طفلها، ومنهُن حمَّالة الحطَب في جيدهَا، ومنهن المزفوفَة إلى بعلها في مَوكبٍ جنائزيّ رهيبٍ...

تحتَ صُورة التميمة يكتب بحرُوف طورُوبريَّاندِيَّة أنيقة: «أَطَانْ أُولُومِيكْ؟»، ومَعناها «ما اسمُ هَذا؟». فإن قالَ التلميذ: «هذا ساحر» مُنحَ صفرا، وإن قال: «هذا راهب» عنَّفَه الشرطيان قائلين: «لا تراوغنا، فهَذه ليست إجابة»، وإن كتَبَ: «هذه امرأة»، أو «هذا حمار» جُوزي أيضا بصِفر لأنه يكون، بإجابته تلكَ، قد انتهك الحكمة الطّورُوبريَّاندِيَّة القائلة: «كلُّ شيء ليس نفسه إلا السَّاحر والرَّاهب». فبموجب هَذه المأثورة المشيَّدَة على قاعِدَتَي الكُوجِيتُو الطورُوبريَّاندي - أنا لستُ أنتَ، إذن فأنتَ هو أنا، وأنتَ لست أنا، إذن فأنا هُو أنتَ - يُمنَع على كلِّ فرد أن يسمِّي الشيء باسمه. فإذا تعرَّض أحدُهُم، مثلا، لسرقة وسجَّل شكاية ضدَّ غريمه قائلا: «لقد سَطا على أموالي لِصٌّ»، فإنه يُتّهَم بالزَّندقة فيُحاكم ويسجَن. ولن يرُدَّ عنه هَذه التهمة آلافُ المحامين ولا معاجمُ الدُّنيا قاطبة لأنه بدَلا من أن يقول: «لقد سَطا على أموَالي

لصٌّ» كان عليه أن يقولَ: «لقد تفضَّلَ مُحسِنٌ فأكرَمَنِي جَازَاهُ السُّولُولُو والوُلُولُو بخير».

إذا سوَّلتْ لك نفسك بأن تحترفَ اللُّصُوصيَّة لتصيرَ ثريا بين عشيَّة وضُحاها ظانا أنَّ القوم سيسمُّونك «حاتم الطائيَّ» أخطأتَ، لأنكَ ما تكادُ تضع يدكَ على شيء، ولو كان مجرَّد عُقال بَعير، وتقول لضحيَّتِكَ: «لقد تفضَّلتُ وأكرَمتكَ فاشكرنِي» حتّى لا تفطنَ إلا وقد حاصرَكَ مئاتُ الأطفال والنّسَاء والكهُول مسلحين بالعصيّ والدَّبابيس والخناجر وهُم يصرخون في وجهكَ: «لن تنفعكَ معنا مُراوغة. هَات ما سَرقتهُ وإلا هشَّمنا أضلعَك أو فقأنا عَينيكَ». وبالفعل، لن تنفعكَ مُراوغة لأنَّ القوم لن يخلوا سَبيلك إلا بعدَ استرجاعهم العُقال. وإن أنتَ استمسكتَ بزعمِكَ فاقرأ على عينيكَ أو رجليكَ السَّلام وجهِّز عُدَّة اللحاق بطابُور المعَوَّقِينَ والمكفوفين الذين تعجُّ بهم المدينة.

*

* *

إذا اعتقدتَ أن الطُّورُوبريَّانديّين يعيشون في فَوضَى التّسمية وسوَّلت لكَ نفسُك أن توقعَ بمن شئتَ منهم لم ينقلب الأمرُ دائما إلا ضدَّكَ،لأنّك تسمياتك ستكونُ دائما مجازفاتٍ غير مضمونة فيما لا يجازف الطّورُوبريَّانديُّون أبدا بالكلام، ذلكَ أنه مهمَا يكن الإسم الذي يُطلقه طورُوبريَّانديٌّ مَّا فإنه لا يخرجُ عن إحدى قاعدتي «الكوجيتو الطورُوبريَّاندِي». تقولُ القاعدة الأولى: «أنا لستُ أنتَ، وإذن فأنتَ هو أنا»، وتقولُ الثانية: «أنتَ لستَ أنا، وإذن فأنا هُو أنتَ». وبدُون تعلم

اللغَة الطّورُوبريَّانديَّة يستحيلُ على المرء أن يفهَمَ هاتين القاعدتين. والحروفَ الهجائية الطّورُوبريَّاندِيَّةِ هي أيضا رُمُوزٌ دينية، ولذلكَ يستحيلُ تعلمَها دون المرُور مِن الكنيسة. أمَّا عملية التعَلم فتستغرقُ تسعة وتسعين مقاما أو طقسا مُوزعة على عشر سنوات، وهُو نفس عدد الحرُوف الطّورُوبريَّانديَّة وعدد الكنَائس والأباطِرة الذين تعَاقبوا على حُكم المنطقة، أهمُّها على الإطلاق المقامان: «طقس التعذيب التمهيدي»، و«طقس الإنجاز الاستكشافي».

وفضلا عن ذلك، فللطورُوبرياندِيين مأثورة تقول: «الحمار يبشر بالدولار»، يحرمون تأويلها تحريما تاما، وهذا التحريم هو هو الذي يُمَكِّنُهُم من تسمِية الشَّيء الواحِد بأسماء عديدة بكيفيةٍ تجعلُ من السَّهل جدّا المرُور بالشيء والكائن مما هُو إلى ما ليس هُو ومما ليسَ هو إلى ما هُو فعلا. بعبارةٍ أخرى، إنَّ حظر التأويل هو الذي يتيحُ لهم اختزالَ المسَافة الفاصلة بينَ الأسماء والمسمَّيات وجعلها هَشَّة بحيث تصبحُ قابلة للمَحوِ باستمرار إلى أن يظهَرَ الوجه العَاري لكوميديا التسمية لكن أيضا لديكتاتوريتها، بحيث يصير المرتشي حواريا، والراشي وزيرا، واللص قديسا، والأمي «زالوم بُوبُو»، والعاهرة ماكولا والاطومَ... فعلى سبيل المثال، إذا صادفتَ في طريقكَ طورُوبريَّانديّا وهو يسير رُفقة امرأة وصبي وحمار ثمَّ ابتمستَ للصبي، كان أمَام صاحبك خمسٌ وثلاثون إمكانية لتسميتك يستتبع كلاّ منها ردُّ فعل مختلف إزاء ابتسامتك بحيث يمكنه أن يقتلك بسبَبِهَا كما يمكنه أن يكتفي بالابتسَام لك ومُوَاصَلة سيره. فإذا رام قتلكَ صرَخ بأعلى صَوته إلى أن يتحلَّقَ حولكما آلافُ المارَّة وهو يُردِّدُ: «لَقَدْ رَاوَدْتَ زَوْجَتَهُ! لَقَدْ رَاوَدْتَ

زَوْجَتَهُ!». ولن ينفعكَ آنذاكَ أي شيء لردِّ زعمه: فإن قلتَ: «إنما هذا صبيّ وهذه امرأةٌ» سخر منكَ المتحلقون جميعا وهم يقولون لك: «لن تفيدَك مُراوغةٌ معنا! إنما هَذه [=الصبي] امرأةٌ وهَذا [=المرأة] حمارٌ»... أمَّا إذا شاء أن يقتلعَ إحدى عينيك، فإنه يقفُ فورَ ابتسامك أمَام حِمَاره وهو يَصرُخ في وجهكَ: «أنتَ تزرعُ كراهية الإلهين في جَسَدِي. هَذا أبي...». وبالطريقة نفسها سيؤكد لك كلُّ المتحلقُون زعمه. وإذا لم تقتنع جيءَ بالسَّاحر، وبإصداره إشارة وَاحِدة بإحدى عينيه للحمار سيصرُخ هذا الأخيرُ في وجهك قائلا: «إنما أنا أبُوه! إنما أنا أبُوه!»

*

* *

تقولُ المأثورة الطورُوبريَّاندِيَّة: «الكلمة حُدُودٌ: حدٌّ للسَّاحر، وحدٌّ للرَّاهب، وحدٌّ على ناطقها». ولترجمة هذه الحكمَة إلى حقيقةٍ عمَلية يومية شيَّد الطورُوبريَّانديُّون نِظاما تعليميا لا يُضاهيه أيّ نظام على وجه البسيطة، رَصَدوا له الأموَال الطائلة والعُقول المدبِّرة عملا بما جاءَ في سِفر المأثورات:

«لو أنفقتَ في تعليم أبنَائك من المال والذّهب والفضَّة ما لو جعَلتَه في كفة وجعلتَ الأرض في أخرَى ورَجَحَ المال والذّهب والفضَّة وما رجَحتِ الأخرَى لما أنفقتَ مِثقال حبَّة مما كلَّفَكَ السُّولُولُو والوُلُولُو بإنفاقه في سَبيل عِيالك». ولنر بَعضا ممَّا يُكلفه الطفل الواحدُ خلال مَرحلة تعليميةٍ واحدةٍ:

فعندما يجتازُ التلميذ بنجاح «طقسَ المرأة المعلَّقَةِ في الهواء» تؤدَّى عنه ضريبة بقيمة خمسة دُولارات للتّسجيل بالقسم المَوَالي، ويُشترى له خُفًّا جلدِ تمساح بثلاثة دُولارات وتسعين سَانتسا، وقلنسوة جِلد ماعز بدُولارين ونصف، وتنّورة حريرية بسَبعة دُولارات، كما يؤدَّى عنه ما مجموعهُ عشرة دولارات لأجل بُخور وأناشيدَ دينية وصورة تِذكارية تؤخَذ له مع السَّاحر لحظة نطقِه بما سَيصير الطفلُ إياه عندما يكبُرُ. وبذلكَ يبلغ مجموعُ ما يؤدَّى عن التلميذ خِلال هذا الطقس الانتقالي وحدَه أربعة وثلاثون دُولارا وتسعُون سانتسا. وهُو - كما يقول الطّورُوبريَّانديُّونَ أنفسهم - لا يعدُو مجرَّد مبلغ رمزيّ لأنه ما يلبث أن يتضَاعف بحسَب المؤسَّسة التي سيلجُها الطفل تبعا لكلمة السَّاحر: فإن قالَ له مثلا: «اذهب فإنكَ وزيرٌ» التحق بمدرسة ركوب الحمِير»، وإن قال له: «اذهب فأنت راهبٌ» وَلَجَ معهدا للزراعة، وإن قالَ له: «اذهب فأنت فاجرٌ» التحق بدَير للرُّهبَان، وإن قال له: «كن جَاسوسا» التحق بالمعهد العالي للحِلاقة... ولكلِّ مُؤسَّسة شُروط ومبالغ ومُستلزمات مُدونة في كتاب. فإذا قيل لتلميذٍ مثلا: «اذهب إلى مَدرسة رُكوب الحمير»، تعيَّن عَليه أداء خمسين دُولارا للتسجيل، وشراء سكَافَاندر بلاستيكي بمائتي دُولار، واقتناء عشر ريشاتٍ طاوُوس بعشرة دُولارات، وتوقيع صحيفة يلتزمُ فيها بأن يُحضِر على رأسِ كل شهر حمارا بقيمة مائة دُولار، ويؤدي خمسمائة دولار شهريا - طيلة السَّنوات العشر التي يَستغرقها التكوين - لأجل بَاقي مُستلزَمَات تَحصِيل العُلوم والمعَارف من بُخور وأدوية وحَلويات وعصيّ ودَبابيس... وهَذا المبلغ هُوَ

الآخرُ يَتقلبُ بتقلب مِزاج السَّاحر، وأحوَال الطقس، ومَدِّ البحر وجَزره، ومَا ستكاشف به حُرُوف سِفر المأثورَات الطفل من مُعجزات...

هَكذا، فعامَ نزَلت أمطارٌ طوفانية وأتلفت المرَاعي وغلاّت الحبُوب والأشجَار قفزَت الفاتورة إلى عَشرة ألف دُولار شهريا. فلمَّا عجز عن أدائها آباء التلاميذ أجبِرَ الحِوَاريُّونَ أنفسُم على تسدِيدِهَا، فسَدَّدُوها إلى أن عَجزوا، فلما عجزُوا ألزِمَ بأدائها التجَّار والحرفيون والفلاَّحون، فأدَّوها إلى أن اختفَى النقدُ من التدَاوُل، فصارَ طعامُ القوم يوميّا هو كِسرة خبز محشوَّة بمعجون يُشبه الشّوكولاطَة، يُوزَّعُ عليهم نصفهَا في الصبَاح الباكر والنصفُ الآخرُ قبيل النوم، وكلمَا اشتكوا منَ الجوع قيلَ لهم:

«ابشروا فأموالكم في الضفة الأخرى. وبفراغ بطونكم إنما خفّتِ الأرضُ. ألم يات في سفر المأثورات أنك: "لو أنفقت في تعليم أبنائك من المال والذهب والفضة ما لو جعلته في كفة وجعلت الأرض في أخرى، ورجح المال والذهب والفضة وما رجحت الأخرى لما أنفقت مثقال حبة مما كلفك السُّولُولُو والوُولُولُو بإنفاقه في سبيل عيالك؟"».

*

* *

إذا اعتقدتَ أن الطورُوبريانديين يُقصِّرُونَ أيَّما تقصير في صَرف الأموَال في سَبيل العِلم أخطأتَ، لأنَّ ما يُنفق على التلاميذِ لا يعدُو مجرَّد حبَّة رمل في صَحراء إذا ما قيسَ بما يُنفق في بناء المؤسَّسات.

فالمدرسة الطّورُوبريَّانديَّة لا تشرعُ في تلقين العِلم ما لم يأذَن لها ساحرٌ أو راهبٌ بذلكَ. وهَذا هو السَّبب في كون أزيد مِن نِصف المدَارس لا زالت عَذراء ما وَطأها تلميذ أو حِوَاريٌّ قط مع أن مَلايين الدُّولارَات قد أنفِقَت في بنَائها.

وإذَا ظننتَ أن السَّحَرَة والرّهبان يظنُّون على الأمَّة بالتدشين واعتبرتَهم كسَالى أو بخلاءَ أخطأتَ، لأنَّ الدُّعاء الطّورُوبريَّانديَّ يقولُ: «وَقِنَا عُقُوبَةَ التَّدْشِينِ». وبالفعل فالتّدشِينُ عُقوبة لا يمكنك أن تقدّرها حقّ قدرها، أو تحس بثقل جسامتها، مالم تكن سَاحرا أو رَاهبا أو أبا طورُوبريَّانديّا. فالمدشّنُ لا يأذنُ بفتح مَدرسةٍ إلا بعدَ أن تكاد رُوحه تزهق من جرَّاء ما يلحَقُ به - هو - وما يُلحِقُهُ بالقوم من ضُرُوب التعذيب. فإذا قضِيَ الأمرُ بتدشين مُؤسسة خلِّدَ طَقسٌ عَلى امتدَاد ثلاثين يوما ينتقلُ الساحر طِوالها إلى حَالة ثانية فيرَى أحلاما مُرعبة لا يُبدِّدُ فزَعَها إلا كتابة مِئات الطّلاسِم، ويشتهي فاكهة يَقتضي حلُّ لغز أسمائها صرفَ أيام طويلةٍ في إنجاز مُعَادلات رياضية قاسِية، ويُكابد أوجاعا عَديدة في الرَّأس والمفاصل، ثم يعُود إلى طور الصِّبا فيمتنع عن الكلام، ويَطلبُ الرَّضَاعَة وقِطع حلوى، فترضعُهُ أمُّه وتحمله على ظهرها وترَقِّصُهُ، كما كان صَغيرا، وهي تردد قول الأعرابية القديمة:

يَاحَبَّذَا رِيحُ الْوَلَدْ رِيحُ الْخُزَامَى فِي الْبَلَدْ

أَهَكَذَا كُلُّ وَلَدْ أَمْ لَمْ يَلِدْ قَبْلِي أَحَدْ

يجتازُ ذلكَ كله والقومُ يستحملونه حتى إذا حَان صُبحُ التدشين واقتربَ موعدُ نطقه فرِشَت طرُقات مُرُوره بالقطن والحرير، وتَعَالت

زغاريد النساء، وَرَدَّدَ القومُ نشيدا دينيا تتخلله لازمَة: «وَقِنَا عُقُوبَةَ التَّدشِين». ومَا تطأ قَدَماه المدرسة المرَاد تَدشينها حتى ينطقُ بكلمةٍ - وحي لا مردَّ لقضائها، يُنَزِّلها عليهِ الإلهان السُّولولو والوُولولو تنزيلا. فإن قالَ: «وحشة المكان كدَّرتِ الخواطرَ» هُدِّمَت البناية بكامِلِها، وإن قال: «هَيهَاتَ هيهاتَ أين مني ومنهم؟!» هُدِّم نصفهَا، وإن قال: «رُقناهُم وراقونا لولا أن حَالَ البينُ بيننا» هُدِّمَت أسوَارُها وبعضُ حجراتها... وما يكادُ الساحر يعودُ إلى بيته حتى يكون ما أمَرَ بهدمه قد تحوَّل إلى رميم ليُعَاد بناؤه من جديد وتسجَّلَ المؤسسة في قائمة انتظار التّدشِين، وتظلّ مُغلقة سنوات طويلة حتّى إذا حَان وقتُ افتتاحها جاءَ ساحرٌ أو راهِبٌ آخر فأمرَ بمحوها أو هَدم نصفها أو رُبعهَا تبعا للكلمَة الوحي، وكلّفَ القوم بإعادةِ نصبها من جَدِيد...

لإعَادة تشييد ما هدَّمهُ راهبٌ أو ساحرٌ يفرضُ المخزن الطورُوبريَّانديُّ على الأهَالي جزياتٍ وإتاوات وضرائبَ من الدِّقة والتعقيدِ بحيث يستحيلُ على المرء أن يتملصَ من أدائها أو يتحقّقَ من حسَاباتها. فمساءَ كلّ يوم يمرُّ الجابي ومعهُ فاتورة قيّدَ عليها ما قَام به كلُّ فردٍ من أفراد العائلةِ الواحدة طِوال النهار بأمَانة متناهيةٍ لا تفلتُ من قبضتها شاذّة أو فاذّة. وبجانب الفعل (يُقيَّد) المبلغ الواجب أداؤه ووُجُوه صرفه في إعَادة التّعمِير، فيكتبُ مثلا: «تبوَّلَ ربُّ البيت لترا ونصفا يؤَدَّى عنهما خمسُون سانتسا لشِرَاء نِصف قِرميدة»، أو «رَضع طفلكم يومَه مرَّاتٍ أربع، بمعدَّل رُبع لتر في المرَّة، يؤدَّى عنها عشرون سانتسا لشرَاء سنتميترين حَدِيدا (نوعُ كذا، سمكُ كذا)»، أو «جلسَ ابنكم الأكبرُ يومَه في المقهى الفلاني ساعاتٍ خمس واحتسَى فنجان

قهوَة يؤدَّى عنهما عشرة سانتسات لشراء رُبع كيلوغرام جبسا»... وأسفلَ الفاتورة تكتبُ فقرة من سِفر المأثورات بحرُوف طورُوبريانديَّة أنيقة تقولُ: «لو أنفقتَ في تعليم أبنَائكَ من المال والذّهَب والفضَّةِ ما لو جعلتَهُ في كفّة، إلخ.» (المأثورة)، فمَا يُنهِي صاحبُ البيت قراءَتها حتى يُسدِّدُ للقابض المبلغَ المطلوبَ وفمهُ مُبتسِمٌ ويداه ترتعشان خشوعا وخَوفا.

في الواقع، إنَّ ما يُثقلُ كاهلَ بيت المال الطّورُوبريَّاندِيّ اليوم هُو «آفة» التدشين. فلولاَ ما تقتضيهِ هذه العُقوبة من هَدم وإعادة بنَاء للمكان الواحِد عَشَرَات المرَّات لكان الطّورُوبريَّانديُّونَ اليوم أغنى سُكان الأرض ولتصدَّقوا على الشُّعُوب قاطبة بالتين، والعِنب، والزَّيتون، والعَسل، والخمر، والسَّمن، ولحوم الضأن والخنزير إلى أن لايبقى على وجه البرية جائعٌ أو متسوّلٌ.

*

* *

مَا ترَاءت لي المرأة المعلقة في الهوَاء حتَّى أصبحت فاتوراتُ الضَّرائب تنهملُ عليَّ كالشتاء إلى أن خَامرني الشكُّ فيما إذا كان الرَّاهِب قد أخطأ في إنجاز الطقس فحوَّلني إلى ضريبةٍ بذل أن يحوّلني إلى طفل عمرُه سبع سنوات: فمهمَا كنتُ أفعل إلا وكانتْ تأتيني ضريبةٌ على ما فعلتُ، تأتي على شَكل فاتورة مملوءَة بإحصائياتٍ في منتهى الدقة،لم أعلم إلا فيما بعد أنهَا كانت من إنجاز آلاتِ رقابة شديدة الحسَاسية مُعلقة خفية في سائر الأمكِنة العُمُومية والخصوصية.

فعندمَا كنتُ أغادرُ المنزلَ كان الجابي يأتيني بفاتورَة ضريبة الخرُوج وقد قيّدَ عليها، فضلا عَن الثمن، طول المسَافة التي مشيتها، ومجموع المسَاحة التي شغلتها قدَمَاي من الطريق وأنا أمشي، وكمية الأوكسجين التي استنشقتها... وعندَما كنتُ أعرض عن الخروج كانت تَأتيني ضريبة القعُود وقَد قيّدَ عَليها، بالدِّقة السَّابقة، مجموعُ السَّاعات التي قضيتهَا في المنزل: سَاعات اليقظة، وسَاعات النوم، وسَاعات التفكير...، عندما كنتُ أهملُ اللحية كانتْ تأتيني ضريبة الإهمَال، وحينمَا أحلقها تأتيني ضَريبة الحِلاقة. ولما نَفق كلُّ ما كنتُ أملكه في الضَّرَائب أكلتُ الهوَاءَ فجاءت ضريبة الهوَاء ثمَّ بعتُ ملابسِي فجاءت ضريبة العَراء...

*

* *

إذا نصحتَ الطورُوبريَّانديّينَ بالتَّخلي عن طُقوس التَّدشين لتوفير مخزُون بيت المال لما فيهِ صلاحُ الأمّة ردُّوا على اقتراحكَ لا محالة بإحدَى طريقتين: فإما يتهمُونكَ بالزَّندَقة، فيُحاكموكَ ويودِعوكَ السِّجن، أو يُفحِمُون زعمَك منَ العصا بما لا سبيل لردِّه إلا أن تتراجَع عن قولِك. وفي الحالةِ الثانية ما أن تفاتِحَهم بنصيحَتك حتى يَضحكوا إلى أن يستلقوا على أقفائِهم ثمَّ يقولون لكَ: «حسنا صنعتَ بفتحِك عُيوننا على ما ظلت عنه مُغمضة منذ قرُون. لكن تعالَ نختبرك أوَّلا إن كنتَ من الصَّادقين!»، فيُطلقوا البريحَ في المدينة ليُشيعَ أن حان وقتُ افتتاح مَدرسة كذا إلى أن يحتشدَ آلافُ التلاميذ والنسَاء والكهُول والمدَرِّسِينَ، فيُقَالُ لهم: «هُو ذَا السَّاحر الذي أوحيَ إليه بتدشين

مُؤسَّستكم. فقد مَضى على وحيهِ شهرٌ وما بقي إلا أن يَفتح البناية ويبُث في أمر هَدمها أو بقائها، فاحضِروا المعاولَ والفؤُوسَ والمطرقات والسَّواطير وجهِّزوا البغَال والحميَر لحمل الحطَام، لكن احملوا أيضا الرِّيشات والحِبر والدَّفاتر والمنشفات لطلبِ العلم، فعسَى أن لا يُوحَى لهذا السَّاحر بهَدم طوبَةٍ واحِدَة...»، ثمَّ يسُوقك الجمعُ إلى باب المدرَسَة حتى إذا وصلتَ سلمُوك مفتاحا وقالوا لكَ: «هيا، افتحهَا إن كنتَ من الصَّادقين! هيَّا، افتحها إن كنتَ من الصَّادقين!»، لكنكَ أينما تدِرِ المفتاحَ لا تجد أمَامكَ إلا بابا ضخما مُوصَدا لا يتزَحزَحُ قيد أنملة، فتقعُدُ خاسِئا، خَجولا، حَسيرا، كليما. وهُنا يثِبُ عليك القومُ، بعضهم يلوي على عنقك يريد خنقك، وبعضُهُم يهوي على رجليك يروم كسرَكَ...، فلا يفلتك من الموتِ إلا نَهنَهَة البكاء وطلبُ الصَّفح عمَّا اقترفتَ من إثم. وسببُ ذلك كله أنكَ، بما زعمتَ أنه نصيحة، إنما تكون قد أتيتَ ذنبا عظيما لأنك أهنتَ السُّولولو والوُولولو، وأنكرتَ ما لا يجرُؤ على إنكاره إلا زنديقٌ: فهما اللذان يُطهِّران الدراجة من الدنس الجنسي. ولولا اضطلاعهما بهذه المهمة لكان ما من بكر امتطت دراجة إلا نزَلَتْ منها مفترعة، وما من امرأة ركبتها إلا ونزلتْ منها حُبلى حتى وإن كانت مُطلقة منذ عُقودٍ أو كان يفصل بينها وبين زوجها آلاف الفراسخ... وهذا هو السبب في كون الرجل منهم متى عادت ابنته إلى البيت ثيبا أو رجع - هو - من سفر طويل ووجد امرأته حُبلى قال لها: «هل ركبت دراجة؟»، فإن أجابت بالنفي قتلهَا...، وإن قالت: «نعم» ذهَبَ إلى صاحب الدراجة ثمَّ سأله: «ما قولك في السُّولُولُو والوُولُولُو؟»، فإن قال: «هُما صَنمان من حَجَر» أيقن السَّائلُ أنَّ

قريبته وَقَعَت ضحية فأخلى ساحتها، وإن أجابَ صاحب الدرَّاجة قائلا: «أحدُهُمَا عن يميني وثانيهمَا عن يسَاري، وأنَّى توجَّهتُ توجَّهَا معي»، أو قال: «شأنهمَا عظيمٌ مَهما بدا من عمًى أحدهما وعَرَج الآخر» أيقنَ السَّائل أن ابنته أو زَوجته قد خَانته فيجلدُها إلى أن تبوحَ باسم شريكها، فيقتلهُما معا.. ثم إنَّ السُّولولو والوُولولو هما اللذان يُتوّجان ما ينهلهُ الحِواري من عُلوم المشايخ باللقاء مَعه والنفث في يدَيه ليكتسب قدرة الكتابة بسرعة الضوء بحيث يصير قادرا على إنجاز الدرس وهو يُدَوِّنُ كل مَا يقوله ويرَاه دُون أن يرتبكَ. فتراه ينظر إلى التلميذ ويسأله وينصتُ إلى الإجابة ويدُه لاوية على القلم تدَوِّنُ ذلكَ كله بمنتهَى الدِّقة والأمَانة. فتنتهي الحصَّة وتجده قد مَلأَ مائة صَفحة أو أكثر بأسماء التلامِيذِ، وأحسابهم، وأنسَابهم، وعَناوينهم، وأرقَام أحذِيتهم، وعَناوين الحاناتِ، والمطلقات من النسَاء، وأثمنة الموَاد الغَذائية... والحقّ أنهُ لولا هَذه السُّرعة لكَانت الحياة الطورُوبرياندية من العُسر بحيث يبحث المرءُ عن عُود ثقاب فلا يَعرف أين يجده، فأحرَى أن يفكرَ في البحثِ عن شغل أو زَوجة أو مَسكن أو ملبس... وبكلمة واحدة، وكما يردِّد الطورُوبريَّانديون أنفسهم، إنَّ التعليم كائنٌ روحُه السُّولُولُو والوُولُولُو وجسمه سِفرُ المأثورات، فإن شكَّكتَ في الإلهين أزهقتَ روحَه، فتعذر ليس تدشين المؤسَّسات التعليمية فحسب، بل وكَذلكَ الكلام بدَاخلها بحيث يتحولُ المدرسون والأطفالُ إلى حُشود من الصُّم البكم، وإن رُمتَ استبدَال سِفر المأثورات بكتاب آخر أصاب الحوَاري مسٌّ من الجنِّ وصار التلامِيذ لا يكتبونَ في دفاترهم إلاّ بَياضا.

*

*   *

إذا اعتقدتَ أن الطورُوبرياندييِن لا يتحسَّرُون على مَا تلتهمُه مؤسَّسَاتهُم من أموال ولا يعمَلون على صَلاح أمر التدشين أخطأتَ، لأنهم لم يدّخِرُوا جهدا في تغيير الوضع الحالي بما تيسَّر لهم. فالمؤسَّسة التي يفلح رَاهبٌ أو ساحرٌ في فتحها دُون أن يأمُر بهَدمهَا يعتبُرونها من المعجزَات، فيبوّؤونها مَكانَة ضَرِيح أو كَنيسةٍ، ويمنحونها لقبا تشريفيا، ويقدِّمُون إليها الهبَات والقرابينَ أمَلا في أن تنقلَ عدوى الانفتاح إلى سَائر المؤسَّسَات المغلقةِ، ثمَّ يَعمَدون إلى بيع مُعظم حُجُرَاتها إلى أهل الحِرَف قاطبة، من حدَّادين، ونجارين، ونحاتين، وإسكَافيين، .وما إلى ذلك. بأسعَار باهضةٍ لما ستذرُّه على أصحابهَا من ثرواتٍ خيالية لأنَّ الموادَّ التي تنتج بداخل هَذه الحجرَات المبَاركة تتضاعَف من تلقاء نفسِها بسببِ ما يتلفظ به الحِواريُّون والتلاميذ من أسماء، فترى الحدَّاد يأتي في الصَّباح ويصنعُ سيفا واحدا ثمَّ يغلق محله وينصرف ليقضي يومَه نائما، ثمَّ يعود في المسَاء فيجدُ المحل قد امتلأ عن آخِره بالسيُوف من كلِّ الأحجام والأشكَال، فيبيعُها ويقفل إلى أهله وهُو يتعثرُ في جلبابه فَرحا وسُرُورا، وترَى صَاحب الدَّجاج يأتي عند طلوع الشَّمس حَاملا بَيضة دَجاج يلقيها في الإصطِبل، ويعُودُ بعد الغرُوب، فيجدُ المكان مُكتضّا بذوات أجنحَة من سَائر الأصناف... وهَذا هُو السَّببُ في ما يُصمِي أذنيكَ من أصواتِ مطرَقاتٍ، وخوَار، وصياح، ومُوَاء... عندما تكون جالسا في أحدِ الفصُول الطورُوبريَّانديَّة تتابعُ الدَّرسَ...

مَهمَا تكن الكلمة التي ينطقُ بها السَّاحرُ - بعدَ اجتياز التلميذِ «طقس المرأة المعَلقة في الهوَاء» - فإنَّ الطفل لا يفطنُ بعدَهَا إلا وهوَ داخلَ حجرةٍ حيث يتعاقبُ على تدريسه طابورٌ من الحِواريين يتولونَ طوال سنواتٍ عشر شَرحَ فقرة واحدةٍ من «سفر المأثورات» لا يتجاوزُ عددُ سُطورها العَشرَة عادة، أي بمعدَّل سطر واحدٍ في العام. وللإشارة، فإنَّ السِّفر هو من صِغر الحجم بحيث لا تتعدَّى صفحاته الثلاثين، طولُ كل واحدةٍ منها حوالي ستّ سنتيمتراتٍ وعرضها زهاءَ أربعة. وقد كانَ صغرُ الحجم، هَذا، مصدَر بلبلةٍ لي طيلة مدة لا يُستهانُ بها، خلالها كنتُ أتوهَّم أن الأمرَ يتعلق بكتيِّب «الحصنِ الحَصِين» الذي يُبَاعُ في كثير من المدُن المغربية في الأسوَاق القروية والمحطّات الطرقية للمسَافرين. ولم يتبدَّد وهمِي إلا لحظةَ سلمني طفلٌ طورُوبريَّانديّ نُسخَة من السِّفر كي يُنقذني من موتٍ شبه محقق، فوجَدتُ خطه شبيها بالخط الهندِيّ، ومن ثمَّ أيقنتُ أن الأمرَ كان يتعَلقُ بكتاب طورُوبريَّانديٍّ أصيلٍ.

سِفرُ المأثُورَات (2)

إذا اعتقدتَ أن هناك خللا بين حجم سِفر المأثورَات وعدد الأعوَام التي تستغرقها الدِّراسَة، فظننتَ أن الطّورُوبريَّانديّين يضحَكون على ذقون صِغارهم أخطأتَ، لأنَّ قيمة السِّفر عندَهم تفوقُ قيمة الكتب المنزَّلة عندَ أهل الدِّيانات التوحِيديَّة: فهو، عَلى صغر حَجمه وضآلة عَدد صفحاته، يحوي عُلومَ ما كان، ومَا هُو كائنٌ، وما سيكونُ. وهو وحيٌ أوحَى به السُّولُولُو والوُولُولُو إلى السَّاحر والرَّاهِب في أزمنة مختلفة وأمكنَة مختلفة بروَاية واحدَةٍ لا يتناطحُ حَولها اثنان. ثم إنَّ لكلِّ كلمة من كلماته مَعاني ثلاثة: مَعنى ظاهرٌ، ومعنى باطنٌ، ومعنى يتجلى للقَارئ لحظةَ القرَاءة. هَكذا، فإذا فتحتَ الكتابَ ووقعتْ عيناك على كلمَة «لصّ»، مَثلا، كان مَعناها الظاهرُ هو «سَارقٌ»، ومعناها الباطنُ هو «وَزيرٌ» أو «حاكمٌ»، أما مَعناها الثالث فهُو ما سيتجلى لكَ. فقد يتراءَى لكَ في «فقير» أو في «صُعلوك»، وإن كانَ معَك قارئٌ آخر فقد يتجلى لهُ في «حكيم» أو «قدِّيس»، وإن وُجدَ ثالثٌ فيمكنُ أن يُشرق له المعنى في ما ذَهبتمَا إليه أو في شيء آخرَ، كمَا يمكن أن يتجلى لهُ فيكما بالضَّبط، فيقولُ: «ما المرَادُ بهذه الكلمة سِوى «لصّ»، وما أرى لصّين غيركما»، ثم يلقي عليكما القبض ويُودعكما السِّجنَ لتجلَدَا

إلى أن تقِرَّا بما نسِبَ إليكمَا. وعلى مَعاني التجلي تقومُ الحياة الطُّورُوبريَّاندِيَّةِ بكاملها، ولذلكَ فهم يُردِّدُون دائما هذه القولة المختومَة بدُعاء:

«طُوبَى ثم طُوبَى لاثنين: تلميذٌ جاءته تميمتُه يومَ الامتحان بصُورة السَّاحر أو الرَّاهب فكفته شرَّ الإجابَة، وامرئ تجلى لهُ مَعنى الاسم فأصَابَ الإجابَة. فلتجعَلاني من هَذين - طالما حييتُ - حتى لا أودَعَ سجنا ولا يُجعَل على فمِي كمَامة أو تمرَّ على عيني سحابة».

وبالفعل، فإذَا كنتَ من أهل التّجلي، وأتيتَ فاحشة مهمَا عظم قدرُها كانَ بمتناولكَ دائما أن تفلحَ في إفحَام آلاف المحامِينَ بمفردك وردِّهِم على أعقابِهم خاسِرينَ، وقلب التهمَة على مُتهمك بكلمةٍ واحدةٍ تطلقها عليه كالرَّصَاص فتدخله السِّجن وتخرجُ أنتَ حرّا طليقا. وقد رأيتُ أحدهم بأمِّ عيني كَان قد ضُبطَ متلبسا فوقَ شقيقتهِ، فقيلَ له: «لقدَ غشيتَ محرما، وأنتَ تعلمُ أن شريعتَنا تعاقبُ على ما فعلتهُ بالإعدام شنقا»، فلمَّا حان موعدُ قتله وتحلّقَ حوله آلافُ الأطفال والنسَاء والقضَاة نزلَ عليه وحيٌ فصرَخ فيهم قائلا: «لن يقتلني أحَدٌ ما لم يَقتل نفسَهُ أوَّلا. فأنا لم أكن فوقَ أختي، بل كنتُ فوق زَوجتي. أليسَ آدم وحوَّاء أبوانا جميعا؟». وماَ أنهى كلمتَه هذه حتى أخلَى القومُ سبيله وتفرَّقوا من حَوله مرعوبينَ.

وفوقَ ذلكَ كله، فمحتوى سِفر المأثورَات يتغيَّر بتغيُّر مآرب القرَاءة، وبذلكَ لا يقرأ شخصَان موضُوعا واحدا في الوقتِ نفسِه، إذ

يحدثُ دائما أن يجلسَ فردان جنبا إلى جنبٍ، ويمسكان نسخة من السِّفر، فيفتحَان الصَّفحة الخامسَة، مثلا، غير أن لا أحدَ منهما يرَى ما يراه الآخرُ، فيقول الأوَّل: «هذا كلامٌ في تجَارة الماعز»، ويقولُ الثاني: «هَذا قولٌ في آدَاب النكَاح». ثمَّ ينصرفان مَعا فتعرضُ الصفحة نفسُها على شخصين آخرين، فيرَاها الأوَّل: «حديثا في مَنطق الطير» ويجدُها الثاني «كلاما في الدرَّاجة أو في رُكوب الخيل»... وبذَلكَ أيضا يصحُّ الاعتقاد الطُّورُوبريَّاندي الذي يرَى أن سِفر المأثورات هُو أبو الأسفار جميعا، فيه كلّ ما وَصَل إليه الإنسَان في التنجيم والطبِّ والحكمةِ والتاريخ والفِيزياء والكيمياء، وما سيصلُ إليه في البيولوجيا، والطاقة الشَّمسية، والمعلوماتية، وما إلى ذلك.

*

* *

إذا التمستَ تفسيرا لاختلافِ الأقوَال الأربعَة السَّابقة فعجزتَ وقلتَ: «ما سفرُ المأثورات سِوى هُراء يعبث بعُقول قوم سُذَّج مجانين» أخطأتَ، لأنَّ ما حال بينكَ وبين الفهم إلا جهلكَ بما كانَ يملأ رأسَ كلّ قارئ من القرَّاء الأربعَة لحظة القراءة: فأوَّلهم كانَ يمتهن تجارة الماعز وكانَ على وشكِ عقدِ صفقة بيع فجاءَ يستشيرُ الكتابَ، وثانيهم كانَ أعزب شغله أمرُ الزَّوَاج وقِصَر اليد وفرَاغ الجيب فأتى يبتغي زوجَة صَالحة، وثالثهم كَان صيَّادا وكان قد اصطادَ محرما فجاء يطلبُ المغفرة لِما اقترفَ من إثم، ورابعُهم كان أبا لتسعة أولادٍ فأراد أن يَشتري وسيلةَ نقل تتيحُ له أن يحملهُم جميعا فوقها فاحتَار في أن يشتري

حِصانا أو درَّاجة فأتى ليبث في المسألة. والوَاقعُ أنني ما كنتُ لأهتدي إلى هَذه الحقيقة لولاَ أن هدَانِي إليها أحدُ صبيانهم:

فطِوَال الأشهر الأولى من مقامي بينهُم، حيثُ كنتُ أشتغل حِواريا في مادَّة الترجمة بالمعهد الدَّولي للغات، كنتُ كلما تناولتُ وَجبة غذاء أو عَشاء وتمددتُ فوق الفراش لأخلدَ للنوم سمعتُ دَقا قويّا بالباب، فأقومُ مذعورا، وما أكادُ أفتح البابَ حتى يُدَاهِمُ البيتَ رجلٌ من الأهالي يرتدي جلبابا صُوفيا وبرفقته قطيعٌ من الأجسَاد الملفوفة بعِنَاية متناهيةٍ داخل مآزر سُود حَجَبَت العيون والأنوف إلى أن صَار الناظرُ يتوهَّم أنه ما يرى إلا أشبَاحا أو عفاريتَ... يُسَوِّي الزائر جلسته ويضحكُ إلى أن يستلقي عَلى قفاهُ ثمَّ يبدأُ فزعي قائلا: «لقد جئتكَ بمن سيملأنَ بالسَّكينة قلبكَ، ويُزَينَّ بالصالحات ذِكرك، ويكتمنَ عن الأعداء عيبَك، ويرزُقنَكَ ذريَّة صالحة (...) جئتك بزيجاتٍ صالحاتٍ فاختر منهنَّ ما طابَ لكَ». وأمام ارتباكي يُخرجُ العارضُ من ثنايا جلبابه كيسا امتلأ عن آخره بأورَاق نقدية مِن فئة مائة دُولار، ثمَّ يحثني: «لا تكثرت للمَهر. إن شئتَ امرأة واحِدَة هاتِ خمسمائة دولار أرجعها لكَ فورا ومَعَهَا عشرة ألف دُولار زيادة. وإن شئتَ اثنتين فهاتِ ألف دُولار أرجعها لكَ حالا ومعها عشرُون ألفَ زيادة. وإن شئتَ ثلاثا فهاتِ ألفا وخمسمائة ورقة...». تغريني الصَّفقة فأستجيبُ لعرضِه قائلا: «أردتُ كذا زَوجة، لكن حتى أكون على بيِّنة مما أنا مُشتريهِ، رَخِّصْ لإحداهُن أن تزيحَ المئزرَ عن وجهِهَا لأرَاهَا وتراني»، فما أكادُ أنهي طلبي هَذا حتى تنتاب الرَّجل سَورَة غضبٍ فيسُوق قطيعَه ويغادر المنزلَ وهُو يصرُخ: «لن أزوِّجَ نِسوَتي رجلا فظا غليظا يلزمهُن بحجب بهائهنَّ...». أعودُ إلى

الفِراش فما تكادُ عيناي تغفوان حتى أسمع دَقّا أقوَى من الأوَّل وأفتح البَابَ فإذا بالزَّائر، هذه المرَّة، رجُلٌ من الأهالي يرتدِي بذلة أنيقة وقبَّعَة رياضية، ومعَه قطيعٌ من النسَاء السَّافرات. يندفِعُ الجمع داخِل المنزل، فتتجرَّد البناتُ من ملابسِهنَّ الفوقية، فإذا بهنّ حِسَانٌ أشرقت وجُوههن، وتدلّت شُعورُهنَّ، وانكشفَ مَا بين نهُودهِنَّ وسيقانهن، فيقعُ فضاء البيت تحتَ ضغطِ رَوائح مَراهم التجمِيل، والتبغ، والندِّ، والجعَّة، والمسكِ، إلى أن يسيلَ لعابي. غير أن الزَّائر يرسِلُ قهقهة إلى أن يستلقي عَلى قفاهُ ثم يُفاتحني في العَرض نفسِه: «قد جئتكَ بمن سيملأن بالسَّكينة قلبَك، ويُزينَّ بالصَّالحات ذكرك، ويكتمنَ عن الأعدَاء عيبَك، ويرزُقنَكَ ذرية صالحة (...) جئتك بزيجاتٍ صالحاتٍ فاختر منهُنَّ ما شئتَ». وقبل أن أتكلمَ يخرج العَارض كيسا ككيس صاحِب الجلباب، ثمَّ يستعدُّ لعَرضِ صفقة المهر، غيَر أني أقاطعُه صَارخا في وجهِهِ: «لا نسَاءَ أريدُ، ولا دُولار، ولا عيال، ولا يحزنونَ. امسك عاهِراتك واخل سبيلي». ومَا أنهي صرختِي تلكَ حتى تنتاب الزَّائرَ سَوْرَة غضبٍ أقوى من سَورَة صاحب الجلباب، فيسُوق قطيعَه ويغادر المنزلَ وهو يهدِّد ويتوعَّد قائلا: «لقد قذفتَ نسائي وشتَمتَهم وهنَّ صالحاتٌ محتجباتٌ. سأسجِّلُ حالا شِكاية ضدَّكَ». وبالفعل، يتجهُ إلى أقرب مَكتبٍ للشرطة، فيدخله بوجهٍ تحجُبُهُ سَحَابة من الغَيظ الكثيفِ ثم يُودِع شكاية أو شِكايتين ضدِّي.

كان عددُ الشكاوي التي سُجِّلَت ضدِّي قد بلغ خمسمائة شِكَاية، وهُو النصَابُ الذي يعرِّضُ صاحبهُ، في نصوص القانون الطُّورُوبريَّاندي، لعُقوبة الإعدام حَرقا دون المرُور بأيّ محاكمة، وكنتُ

أتهيأ لكارثة محوي لما سمعتُ بباب المنزل نقرا خَفيفا أيقنتُ مَعه أن الزائر ما كانَ سيكون في تلك المرَّة إلا صاحِب المحرقة، وأنّه قد عمد بتلطيفِ طَرقَتِهِ إلى التمويهِ لكي لا أفطنَ إليه وأمتنع عن الخرُوج. غيرَ أن ذلكَ اليقين سُرعان ما تبدَّد، إذ لم أجدني أمامَ رجُل كما ظننتُ من قبل، بل وجدتني قبالةَ صَبِيّ لا يتجاوزُ عُمره حَولا واحدا. اندَفعَ الطفل إلى داخل المنزل، ثمَّ رمَى مصَّاصَتَهُ وأخرَج من جيبه كتيّبا صغيرا، قالَ إنه يُدعَى «سفر المأثورَات» وإنه سيخلصُني من ورطَتي، فناولني إياه وأرَاني كيفية استخدامِه...

نويتُ الزواج من امرأة طورُوبريَّاندِيَّة، وتوضأتُ وضوء الهواء، وأردفتهُ بوضوء الماء، ثم أنشدتُ نشيدا دينيا كانَ الصبي قد حفَّظني إياه، ثم فتحتُ السِّفر فكانَ ما من صفحة تقعُ عليها عَيناي إلا وأجدها عبارة عَن رسالة مُوَجَّهَة إليَّ، قيِّدَ عليها اسمي، وعُنواني، وسِنّي، ومِهنتي، وعدد عُرُوض الزَّواج التي كنتُ تلقيتها، وأسماء النسَاء اللواتي عُرِضْنَ عليَّ أو ضاجعتهُنَّ... معلومَات من الدِّقّة بحيث مَلكني الرُّعب فأخذتُ أتساءل عما إذا كنتُ أمام سِفر ديني أم مِلف محاكمَة أو سجل تجسُّس. ولم يُهَدِّئ من روعي إلا فقرة كانت تتضمَّن فِعلا سبيل خلاصِي من المحرقَة كمَا قال الصَّبِيُّ من قبل. يقولُ نصُّ الفقرة:

«... ثم اعلم أن المرأة الطورُوبرياندية لا تخلو من أن تكون سافرة أو محتجبة. فإن كانت سافرة عمدت إلى لفِّ جسدها وسط مئزر يكون من الكبر بحيث لا يتيح للناظر مشاهدة أي جزء ولو كان مجرَّد عين أو ظفر أو أنف حتى إذا اطمأنَّ إليها خاطِبٌ وقال:

"نعمَ الزوجة ما وجدتُ: حَصَانٌ رَزَانٌ لم يمسسها إنسٌ ولا جنٌّ. فطوبى لي ثم طوبى"، وعَقدَ عليها رَمَت المئزر وكشفتْ شعرها ووجهها ثم ارتدتْ قميصا شفافا يُسَرِّبُ تفاصيل البطن والنهدين، وتنورة قصيرة تُبدِي السَّاق والفخذين، ودخنت وسكرت، وتردّدت على الحانات والكنائس ابتغاء لهو وفسق ومجون. وإن كانت محتجبة لبست خرقا تشبه الملابس وما هي بملابس، وكشفت عن محاسِن جَسدها جميعا، ودخنت السجائر، وارتادت الحانات، ومجنت وزهَت ولهت حتى إذا اطمأنّ إليها خاطِبٌ وقال: "نِعْمَ الزَّوجة مَا وجدتُ، محنَّكة مجرَّبة ستملأ قلبي طربا وسرورا، فطوبى لي ثم طوبى"، وعقدَ عليها رمت خرقها وأقلعت عن التدخين وشرب الخمر وحاصَرت جسدها بمئزر طويل، لا يتيحُ للناظر مُشاهدة أي جزء ولو كان مجرد عين أو ظفر أو أنف... فلا تقولنّ أبدا هذه سَافرة أو هذه محتجبة، ولمن قالها وأوشك على المحرقة أن يقول: "ما عُرِضَ عليَّ زواجٌ يوما، ولا رأيتُ نساءَ قطّ، فما أنا إلا مسافرٌ عشق أجنحة الريح وخاط لهُ من العُشبِ ثيابا"...»

*

* *

لا شيء أبغض عند الطورُوبريَّانديّين من الحفظِ، ولذلك فقَد بنوا تعليمَهم على عملية تتكوَّن من شِقّيْنِ مُتكاملين، هما: «مَقامُ مُؤانسَة الحوار» (ولا يجبُ الخلط بينهُ وبين مَقام مؤانسة الحِمَار الذي

كنا سنختم به هذا السِّفر لولا مَشاكِلَ مطبعية) و«مقام قُلْ ولا تَقُلْ». وإليهما تعُودُ تسمية أهل العِلم عندَهُم بـ «الحِواريين» أو «أهل القَول واللاَّ قول».

يتكوَّن كلُّ درس تعليميٍّ من رحلتين هُما: «طقسُ التمهيد التعذيبي»، و«طقسُ الإنجاز الاستكشافي». الطقسُ الأوَّل إجباريٌّ يتصدَّر كل حصَّة حِوَاريَّة، وهو يتألف من اغتسَال يسمُّونه «طَّانْ طُولُونْ» - وترجمته حرفيا «وُضوءُ الهوَاء» - ومِن إطلاق بخور طيبٍ وتلاوة أناشيدَ دينية يُختمُ كلُّ نشيد منها بقسَمِ أمَان وسَلامٍ حتى لا تلحق الأسماءُ والكلماتُ التي سيتمُّ التلفظ بها في الفَصل أضرارا بمؤسَّسَةٍ طورُوبريَّانديَّةٍ مَّا أو تحدِث ارتباكا لدَى القائمين عَليها، أو يقع نهبٌ في بيت المال، أو يَستيقظ السَّاحر من نومه... بعد الأناشيد مُباشرَة يأمر الحِوَارِيُّ التلاميذ بإخراج كتاب سِفر المأثورَات والتركيز لبضع لحظات على الفقرَة المناسبة لمستوَاهم الدِّراسيّ، ثم يقف في الركن الأيمن من الحجرَة. يلتفتُ الأطفال إلى الشيء، فإذا هُوَ - مثلا - عبارة عن جسمٍ مثلث، كهَرم صَغير، نصب وغطي بكتّان أسودَ حتى صارَ مثل خيمَة صغيرة. وفيمَا يكونُ الصغار غارقين في التأمُّل ينتشلُ الحِوَاريُّ الفصْل من الصَّمتِ الرَّهيبِ بتهديدٍ عنيف ترتعشُ له المفاصلُ: يمسكُ عصا غليظة تشبه الدَّبُّوس الذي يعاقبُ به الجلاّدُ اللصوصَ، ثم يصرُخ في وُجوهِهِم قائلا:

«مَنْ يَزْعَمْ أَنَّ هَذَا الشّيءَ مَوْجُودٌ أُوجعهُ ضَرْبا إلى أن يَتبين له إلَى أَيِّ حَدّ هُوَ غيرُ مَوجُودٍ، ومَن يدّع أنَّ هذا الشيءَ غير موجُودٍ

أوسِعه ضربا إلى أن يتبين له كَمْ هوَ فعلا مَوْجُودٌ، وَمَنْ لَمْ يَقلْ شَيْئاً أُوجِعْهُ ضَرْباً إِلى أنْ يُحَدِّثنا بِخبايَا نفسِه».

ثمَّ يشرع في مُناداة التلاميذ بأسمائهم وأحسَابهم، تلميذا تلميذا. وبالفعل، فالمدرّسُ الطورُوبريَّانديُّ لا يخلف وَعيده، إذ ما يَكادُ تلميذ أن يفرغ من التلفظ بحرف الوَاو من «مَوجُود» حتى لا يفطنَ لنفسه إلا وهوَ طريح الفرَاش بأحد المستشفيات المجاورَة للمدرَسَة لأنَّ رأسه يكونُ قد هُشِّمَ، وما يكاد آخر أن يتلفظ بالرَّاء من عبارة «غير مَوجُود» حتى لا يصحو إلا وهُو بين يَدي طَبيبٍ يعيدُ زرعَ رجله التي تكونُ قد بُتِرَت منه... والحقّ أنه لولا التقدّم الهائل الذي أحرَزه العُلماء الطورُوبريَّاديون في مجال الطبِّ والحكمة، بحيث صَاروا يجبرون كسُور عِظام الرَّأس في نصف دقيقة ويُعيدونَ العين المقتلعة إلى مَكانها في دقيقتين، لربما كَان ثلثا الطورُوبريَّانديّين أو أكثر قد تخرَّجوا من المؤسَّسَات التعليمية مُنذ سنّ مُبكرة وهم مُصابون بجرُوح خطيرة أو عاهَات مزمنة...

ولا ينتهي هذَا الطقسُ التمهيديُّ التعذيبي عادة إلا بعدَ انصِرام يوم بأكمَله. أمَّا كيفية انتهائه فتتمُّ على النحو التالي: فيما يكونُ الحواريّ مُنهمكا في تدوين مَا يجري في الفصل بيدٍ وجَلدِ أحَد الأطفال باليدِ الأخرَى، يحدث أن يهتدي طفلٌ مَّا صُدفة إلى الجواب الصَّحيح فيحسمُ المسألةَ: يقومُ وهو يصرُخ كمتصوّف انتابته شطحة أو إشراقة: «لقد وَجَدتها. لقد وجَدتها»، ثمَّ يتجه صوبَ الحِوَاريّ فيتظاهرُ، مثلا،

بالبحث عن شَيء في الأرض، حتّى إذا غفا المدرّس ارتمى التلميذ عَلى العصَا بسُرعةٍ خاطفةٍ وأمسكها ثمَّ قال:

«إذا كَان ما زعمتَ شيئا مَوجودا فأنا لستُ موجودا، وإذا كان هو غير موجود فأنا موجود».

ومَا يستولي الطفلُ على العصَا أو يُنهي إلقاءَ وحيه حتَّى يقفُ الحِوَاريُّ مشدوها، فتستعيدُ القاعة هُدُوءها ويعمُّها صمتٌ رهيبٌ إيذانا بجوَاز الانتقَال إلى «طقسِ الإنجاز الاستِكشافيّ»، فيعودُ التلاميذ إلى بُيوتهم لقضَاء الليلة في تخمين مَا عسَاه يكونُ اسمُ ذاكَ الجسم ذِي الشَّكل المثلثِ واللون الأسوَدِ.

لاستكتشافِ اسم الشَّيء المعنيّ يجتازُ الحِوَاريُّ والصغار مَرحلتين تُسَمَّيَان على التّوالي: «مَرحلة اكتشافِ المعلوم»، و«مَرحلة اكشاف المجهُول»:

في المرحلة الأولى، يصلُ الأطفالُ في الصَّباح البَاكر إلى حُجرة الدرس فيجدُون الحواريَّ واقفا ينتظرُهم وهو ينظرُ إلى الجسم الأسوَد، وبمجرَّد ما يستوُون على المقاعد يأمرهم بفتح كتاب سفر المأثورَات ثمَّ يقترب من الكتلة ويُشيرُ إليها بأصبعه وهُو يسألهم: «أطَانْ أُولُومِيكْ؟» (ما اسمُ هذا؟)، فيقومُ تلميذ ويقولُ: «هذه خيمةٌ»، فيعقبُ عليه الحوَاري: «لا، هَذه ليسَت خيمة، إذن فمَا اسمُ هذا؟»، يجيبُ تلميذ آخرُ: «هَذا هرمٌ»، فيقولُ الحِوَاريُّ: «لا، ليس هَذا هرمٌ، إذن فما اسمُ هذا؟»... وخِلال ذلك، يحدُث أن يسأل الحِوَاريُّ الطفلَ عن أشياءَ قد تبدو لا عَلاقة لها إطلاقا بالدَّرس،كأن يقول له: «ما اسمُ جدَّتكَ التي

ماتت يومَ أمس؟»، أو «بكم اشتريتَ هذا القميصَ؟»، أو «هل تنامُ في غرفةٍ بمفردك أم تنامُ مع أبويكَ في غرفة واحدةٍ؟»، أو «ما اسمُ الحلاق الذي حَلق شعركَ؟ ما عنوانه؟ وكم قاضَيته؟»، إلخ. وعَندما تنفدُ جميع الأسماء التي يحتمَل بالبدَاهَة أن يكونَ الجسم الأسوَدُ أحدها تنتهي مَرحلة «استكشافِ المعلوم» ليتمَّ الانتقالُ إلى المرحَلة الموَالية ويحكمُ الأجوبة منطقٌ شبيه بمنطق الاعتبَاط. وهُنا تعمّ الفصلَ ضوضاء جَدِيدة فيتعاقب البكاءُ والضحكُ والأناشيدُ الدِّينية ووضوءُ الهواء، وصَلاة الماء، وما إلى ذلك. بتعَاقب ذِكر الأسمَاء التي تقتضِي ذلكَ. هكذا، فإذَا قالَ طفلٌ مَثلا: «هذا حمارٌ» أجابه الحِوَاريُّ: «هذا اسمٌ أبطَلَ ذكرُه وضوءَنا»، فيقوم كلُّ من في القسم إلى الميضَاء لإعادة الوُضوء، وإذا قال آخرُ: «مَا أرى هذا إلا قنفذا» عقّبَ الحواريُّ على الإجابة قائلا: «هَذا حيوانٌ مقدَّسٌ، فلنتبرَّك على ذكر اسمه بترنيمِ نشيدِ كذا»، فيتلو الجمعُ نشيدا دِينيا خاصّا بالقنفذ، وإذا قَال ثالث: «إنما هَذه درَّاجة» أجَاب الحواريّ: «ولمن ذَكَرَ اسمَ الدرَّاجة أو سمعَه أن يركبَها ثمَّ يأكل قطعة شُوكولاطة»، فيقومُ جميع من في القسمِ، الحِوَاريُّ والتلاميذ، فيمتطون درَّاجاتهم ويقومُون بجولة في أزقة المدِينة ثمَّ يعُودُوا ليجدُوا في انتظارهِم قطع شُوكولاطة، بعَدَد من في الفصل، قَد نزلت منَ السَّماء بقدرة الإلهين السُّولولو والوُولولو... يتواصلُ الدَّرسُ بهذا الإيقاع. فإذا توصَّلَ تلميذ إلى اكتشاف الاسم المجهُول قبلَ انصرام ثلاثة أيام انتقلَ الحِوَاريّ إلى الدَّرس الموَالي، وإذا لم يتوصَّل إليه أي طفل كاشَفَهُم به الحِوَاريّ على النحو التالي: يُزيح الملاءة السَّوداء، وإذا بالشَّيء موضوع السّؤال امرَأة جالسة كالطّودِ العظيم

وعيناهَا تشِعَّان بريقا، فيصرُخ التلامِيذ فَرحين: «اسمه امرأةٌ. اسمه امرأةٌ»، ويعودُونَ إلى بيوتهم وهُم مُنتشون بما تعلّمُوه. إلا أنَّ هذه النشوة ما تلبث أن تتبدَّدَ في الدَّرس التالي لأن التعليم الطورُوبريَّانديّ يقوم على قاعدَة «كلّ شيْء ليسَ نفسه إلا السَّاحرُ والرَّاهبُ». ففي الصَّباح الموالي يصِلُ الأطفال إلى الحجرَة فيجدُون الحِوَاريَّ قد أجلسَ المرأة نفسَها مَكشُوفة في الزَّاويَة اليُمنَى من القاعةِ فما يَرَاها التَّلاميذ حتى يَكَادُوا يطيروا فرحا اعتقادا منهُم بأن درس اليوم سيُحسم مع أوَّل إجابة، غير أن مَا من طفل يَقول: «هَذه امرأة» أو «ما أظنّ هذه إلا امرأة»... إلا وتكسَّر رجله أو تقلَع عينه أو يُضرب بالعَصا الكهربائيَّة إلى أن يُشرف على الموتِ لأنه يكونُ قد كرَّرَ ذكر اسم، والتكرارُ في الدِّيانة الطّورُوبريَّانديَّةِ زندقة. ولا يُحسَم هذا الدرسُ عادة إلا في الدَّقيقة الأخيرة منَ اليوم الثالث حينما يضربُ الحواريُّ المرأة بعَصَاه إلى أن تنشطرَ الجالسَة إلى نصفين ويتضِح أن الأمرَ لم يكن يتعلقُ سوى بكيس منَ البلاستيك جُعِلَ على هيأة امرأة ثمَّ مليء تمرا، فيصرُخ الصغار أخيرا مبتهجين: «إسمه تمرٌ، إسمه تمرٌ...».

وآنئذٍ فقط يتم الانتقالُ إلى مَقام «قل ولا تقل»، فيشرع الحِوَاريّ في مُناداة الأطفال واحِدا واحِدا ليصحِّحَ أجوبتهم ويرسِّخ الإسم في أذهَانهم، فيقولُ لكلِّ طفل: «لا تقلْ: هذه خيمة، قل: هَذه امرأة»، «لا تقل: هَذا هرَم، قل: هَذه امرأة»، لا تقلْ: هذه امرَأة، قلْ: هذا تمر»، «لا تقلْ: هَذا تمرٌ، قل: هَذا قنفذ»، «لا تقل: هذا قنفذٌ، قل هذا عِفريتٌ»، «لا تقل: هذا عفريتٌ، قل: هذا نفريتٌ».

سفر المأثورات (3)

إذا كنتَ حواريا طورُوبريَّانديّا واعتقدتَ أنه يمكنكَ أن تغشّ بأن تعمدَ، مثلا، إلى إملاء أسماء الأشيَاء على الأطفَال دُون أن تنجز طقس «التعذيبِ التمهيديِّ»، و«طقس الإنجاز الاستكشافي» أخطأتَ، لأنَّ للطورُوبريَّانديِّين من وسَائل المراقبة ما يجعل من المستَحيل على الحواريّ أن يحيدَ قيد أنملة عمَّا رُسِم له من أهدافَ تعليمية دُون أن يضبط ويُعاقبَ. ومن هَذه الوسَائل «الطَّالُوكِيمِينِي» و«الزَّالامْ بُوبُو». وهُمَا مُفردتان يستحيلُ إيجاد مُقابل لهما في العربية. فالكلمَة الأولى تعني حرفيا، وفي آن واحدٍ، «كاد أن يغرق (أو هُو بصدَد الغَرق)، ثم أنقِذَ وتمَّ استدراكه». في حين تعني الثانية حَرفيا: «كانَ ينوي الغِشَّ، وهمَّ بالقيام به، لكنه ضُبط بفضل حِيلة تتيح النفاذ إلى السَّرائر». وعلى سَبيل التجوُّز فقط، وسَعيا لتقريب مَعنى المصطلحين إلى ذِهنِ القَارئ، يمكنُ القولُ إنَّ ما نسميه في نظامنا التّعليمِي «دفتر النصُوص» هُو ما يدعُوه الطورُوبريَّانديون «الطَّالوكِيمِينِي»، وما ندعُوهُ «المفتش» هُو ما يسمونه «الزَّالامْ بُوبُو».

*

* *

«الطَّالوكِيمِيني» عبارة عن كتابٍ ضخم، يزن حَوَالي خَمسمائة كيلوغرام، طوله مترٌ ونصف، عرضُه متر واحِد، سمكهُ متر وثلاثون سنتيمترا. وهُوَ لا يحمَلُ ويُنقَلُ إلا في عربَة خاصَّة. وفيه يتعيَّنُ على الحوَاريّ أن يُدَوّنَ كل شيء؛ فتراهُ يكتبُ أوزان التلاميذ، وطول قاماتهم، وأشجَار أحسابهم وأنسابهم، وألوَان ثيابهم، ويُدوّنُ أثمان الموَاد الغذائية، وعناوين الحانات، ودُور الكرَاء. كمَا يقيدُ فيه أسماءَ المواليد، وأسماء المطلقات، وأوصَافِهنَّ، وعناوينهن... وبذلكَ يُعدُّ هذا الكتابُ مجمعا حقيقيا للعُلوم والمعارف الطورُوبريَّانديَّة. فمَا من شاذّة أو فاذة إلا وتجدُها فيه مُقيدة تقييدا. فإن أردتَ خلعَ ضِرس فانتظر أن يحلَّ المسَاءُ حيث يحمل الحواريّ «طالوكيمينيه» ويضعُه في زاويةٍ بالسَّاحة العُمُومية، واستشِرْهُ تجد فيه عناوين جميع خالعي الأضرَاس، وأوصَاف كلاّبَاتهم، وأثمنة فواتيرهم... وإن رُمتَ تخليدَ حفلَ زواج فتفحَّص الكتابَ نفسَه تجد فيه أثمنة الحلويَات، والأرغفة، وأسماء الرَّاقصات، والأهازيج التي يغنينها، والآلات الموسيقية التي يَعزفن عليها من طَنابير، ودَرامك، ومَزامير، ودُفوف، وبَرَابط... وبذلكَ أيضا يتضحُ أن مهنة التدريسِ عند الطورُوبريَّانديّين لا يلجها أيٌّ كان، إذ لا يرشّحُ لها المرء نفسَهُ إلا إذا صارَ عالما ضليعا في الهندسة والطبِّ، والفيزياء، والكيمياء، والفلك، والنيرجَات...، وهي عُلوم يصرفُ الحواري في تحصيلها ثلثي عُمره حتى إذَا أحاط بها تقدَّم إلى مباراة متَى نجحَ فيها

التحق هُو الآخر بمدرسةٍ تشبه مدرسة رُكوبِ الحمير وأنفقَ فيها نصفَ الثلث المتبقي من حياته في تعَلم فنون الجَلدِ، والنميمة، والرَّقص، والبُكاء، والأكل ليستلمَ بعد ذلك قِسما يصرفُ بداخله ما بقي من سِني حياته في الكشفِ عن الأسماء إلى أن ينهي ما عُهدَ به إليه، فيُقال له حينئذٍ: «اذهبْ فأنتَ الحرُّ الطليق»، ويوعُد باستلام كيس منتفخ بالدُّولار طالما حيي جزاء له عما صنع. غير أن الأمرَ هُنا أيضا لا يعدُو مجرَّد خدعَة طورُوبريَّانديَّة أصيلة. فصبيحة الغد يأتيه رسُولٌ بصحيفة كتِبَ فيها:

«وإذ نشكرك جزيل الشكر على جليل ما نفعت به صغارنا من علوم ومعارف، يسرنا أن نبلغك قرارنا بأن تموتَ حالا حتى لا يُشَاعَ سر المهنة خارج أسوار المدرسة. والسلام».

ومَا يُكملُ الحِوَاريُّ القديم قراءة الرِّسَالة حتى لا يجد بُدّا من الموتِ فيموتُ...

*

* *

طِوال التهيؤ لوُلوج لسِلك مِهنَة التّدريس يجتازُ الحوَاريُّ الطورُوبريَّانديُّ سلسلة من الطقوس - يجمعُونَهَا في قولهم: «زَالاَمْ بُوبُو بُولِي وُونْدِيكُو مَالِي»، وترجمتها حرفيا: «نكرَانُ الذات يُشرِعُ بَاب المعرفة على مِصرَاعيه» - تهدفُ أسَاسا إلى شيئين: إطلاع الحواري المبتدئ على المبدأ المولّدِ للأسماء حتى لا يخطئ أبدا في إطلاق إسم على مسمى، ثم شحذ مَلكة الملاحظة فيه وتجريده من كافة الرَّغَبات والشهوات.

ولتحقيق الهدف الأوَّل يتم تحليق الحواريين المبتدئين حول مائدة يوضع فوقها ديك، مثلا، ثم يُسَلَّمُونَ حزما من الأوراق ويقال لهم: «اقضوا يومكم هَذا في وصفِ الدِّيكِ الذي ترَونَ»، فيصرفون السَّاعات الطوال في التقاط أدقّ التفاصيل وتَدوينها إلى أن تمتلئ الأوراقُ جميعا وتغربَ الشمس، فيأتي الشيخ ويأخذ في قِراءة ما كتبه الحوَاريون المبتدؤون وهُو يضحك إلى أن يستلقي على قفاه، حتى إذا انتهَى عنَّفهُم قائلا: «أرأيتم كيف خَدَعتُكم بمنتهى السُّهولة؟ إن هذه دَجَاجة وليست ديكا». وفعلا سُرعَان ما يتحولُ الديكُ إلى دَجاجة، بقدرَة قادِر، فيتضح أن مَا حسِبَه الحواريُون عُرْفا لم يكن في الحقيقة سِوى قِطعة بلاستيكية حمرَاء تشبه عُرف الدِّيك، أو هي عُرفٌ اصطناعيٌّ كان الشيخ قد ألصَقه فوقَ رأس الدجَاجة قبل دُخول الحِواريّينَ إلى الفصل، ويتبين أنَّ ما رآه الحِوَاريُّون ذيل ديكٍ لم يكن في الواقع سِوى كمشةِ ريشَات كان الشيخ قد اقتلعَهَا من مُؤخرة ديكٍ حقيقي وألصَقها في مُؤخرَة الدَّجاجة بحيث صَارت تبدُو كأنها ديكٌ فعليّ. والحق أنه لولا هذه الدِّقة في التكوين لما اتصف الحِوَاريُّون الطورُوبريَّانديُّون بهَذا الحذَر والتأني الشَّديدين اللذان يجعَلانهم لا يجازفون بالكَلام أبَدا. هكذا، فإذا حلَّقتَ جماعةً منهم حولَ مائدةٍ ووضعتَ فوقها هرّا ثم قلتَ لهم: «صِفوا هذا الهرّ»، فإنهم لن يَشرَعوا في وصفه إلا في اليَوم الموالي لأنّهم سيقضُونَ النهار الأوَّل بكامِله في جَسّ رأس الحيَوان، والضَّغط على أذنيه وذَيله للتحقّق من أنه هرّ فعلا، هَذا ما لم ينشب خِلافٌ بينهم فيضطرُّونَ لحسمِه إلى الانتظار عدَّة أيَّام أو أسَابيع، خلالها يفحصُون برَازه في مختبراتٍ خاصة، ويحللونَ مُواءَه

في مختبراتٍ للصوتيات بآلاتٍ خاصة، ويتحققون مما سيتولدُ عن وطئه لهرَّةٍ في سنّ البلوغ، ومما إذا كان له ذَكرٌ حقيقي أم مجرَّد قطعة بلاستيك... وإذا أرسلتَ إليهم وَرَقة قضوا أياما وليالي طويلة في التّدقِيق في فواصِلِهَا ونقطها وَوَاوَاتِ عطفها قبل أن ينتقلوا إلى مَرحلة الكشف عن مُحتوياتها الظاهِرة والبَاطنة والتي تتجلى لحظة القراءة...

وللطورُوبريَّانديّين قولةٌ تختصرُ ما سبقَ كله، تقولُ: «يستحيلُ عليك أن تخدَعَ حواريا ما لم تكن "زالاَم بُوبُو" داهية». وبالفعل فإن «الزّالام بُوبُو» الدَّاهية وحدَه هو الذي يستطيع الإيقاعَ بالحوَاريّ، إذ متى شاءَ ذلك جاء إلى الفصل وتابع الدَّرس بإمعان شَديد، فيفرح الحِوَاريُّ فرحا شديدا لأنه يكونُ قد قاد الأطفال خطوة خطوة إلى أن أوصلهم، بالدليل القاطع، إلى أن ما يُشاهِدونه في الزَّاوية اليمنى من الحجرة إنما هُو، مثلا، «نعجَة» أو «ابن عرس». غير أن «الزَّالام بُوبُو» يقوم، وبسُرعَة خاطفة، ينفث في الحيوان أو يرشّ عليه مسحُوقا فإذا به يصيرُ «قِردا»... ولا ينفع الحِوَاريَّ آنذاك أن يهوَى على «القِرد» بعصا، مُنتظرا أن ينشطرَ إلى اثنين كي يتّضِح أن الأمر لم يكن يتعلق سِوى «بدُمية» جُعِلَتْ على هيأة قِردٍ وأخفيَ بداخلها «قردٌ» أو «نعجة»، ولا أن يقضي أياما أو شهورا في جسّ رأس الحيوان والضَّغط على أذنيه وذَيله لأنه مهمَا يفعل لن يجد نفسَه إلا أمامَ «قردٍ» حقيقيّ يحاكي حَرَكاتِه وسَكناتِه، ولذا، يضطرُّ للتخلي عن شُكوكه على مضضٍ والاستسلام للأمر الوَاقِع. وهُنا يمسِكُ المحتسبُ عصا ويهوَى على ظهر الحِوَاريّ وهو يُعَنّفهُ قائلا:

«أمَا تملكُ وجها تستحيي به! أنتَ لستَ بقادِر عَلى التمييز حتَّى بين القِرد والنعجة، ومع ذلكَ أوهَمتَنَا بأنّكَ أوتيتَ مِن علوم الطِّبِّ، والهندسةِ، والفيزياءِ، والرّمل، وعِلمِ كشفِ الدَّكِّ وإيضَاح الشَّكِّ بما لم يوتَ به امرؤ من قبل..، فصدَّقناكَ، فلم تقنع، وتجاسرتَ على المجيء إلى هُنا لتحشُو رُؤُوسَ صغارنا بالخزعبلات وأفانين الترَّهَات؟ خسئتَ!. انصرف في حال سبيلك وإلا هَشَّمتُ رأسَك...».

*

* *

أمَّا لتحقِيق الهدَف الثاني، هَدَف تجريد الحِوَاريّ من الشَّهَوَات والرَّغبات وشحذِ ملكة الملاحَظَةِ فيه، فإنهُم يعمدُون إلى زَرع كرَاهية النسَاء والمال في قلبه واستبدَال حُبِّهما بعِشق الكلام، عَملا بما جَاء في سِفر الماثورَات: «اثنان لا يجتمعَان في قلب حَواريي أطفالكم: المالُ والنّسوة»، فيأتونَه، مَثلا، بحسناءَ ويتركونه يخالطهَا إلى أن تسكن إليهَا نفسُه ويحبّها فيقولونَ له: «كيفَ وجدتَها؟» حتَّى إذا أجابَهم: «نِعمَ البُنيَّة هَذه، ويالَيتني كنتُ لها مِن المالكين!» أو «نِعمَ البنية هذه، ويالَيتني كنتُ لها خذينا» جرَّدُوه والمرأةَ من الملابس وأغلقوا وراءهما بابَ منزل، ثمَّ انصَرفوا وترَكوهُمَا يموتان بردا وجُوعا إلى أن يَكاد أحدهما يأكلُ الآخرَ، ولا يخرجُوهُما إلا بعد أن يُشهدوا على الحِوَاري المبتدئ حَشدا من أهل الفضُول يتحلق حَول المنزل فيسمَعُ الرَّجُلَ يصرُخ باكيا: «ياليتني وجدتُ كِسْرَة أحشُو بها البطنَ، وخِرقة أسترُ بها

العورَةَ، وجمرة أتَّقِي بها البردَ. لو وَضعتم نسوة الدنيا الحسَان عن يميني وكسرة خبز فاسِدَة عن يسَاري لاخترتُ خبزا ومَا اخترت نساءً...»، أو يأتونه بأكياس امتلأت عن آخِرها بأوراق الدولار لم تفترعها يد قط، ويقولون لهُ: «اذهبْ فأنتَ أغنى مَنْ جَابت به الأرضَ قَدَمٌ»، ثم يغلقون عَليه منزلا أو يُلقونَ به في صَحراء مُقفرَّة فيلتمس طعاما ولا يجده ويطلبُ لباسا ولا يجده، ثمَّ لا يخلون سَبيله إلا بعدَ أن يُشهِدُوا عليه حشدا منَ الناس يَسمعونه يُردِّدُ: «تبَّتْ يَدَا من جَعل غايتَهُ في الدُّنيا أوراقا لها رائحَة تزكِمُ الأنفَ كرائحة براز الكلب»...

والحقُّ أنه لولا هذه الطقوس التطهيرية لما كفَّ الحواريون الطورُوبريَّاندِيُّون عن ضرُوب الفسَاد التي كانوا غَارقين فيها حتّى الأذنين، ولما اتَّصفوا بهذه الاستقامَة التي لا يجادِلُ فيهَا اليوم إلا زنديقٌ:

فمن قبل، كانت تصِلُ البنتُ إلى الفصل وفمُها لم ينشف من حَليب أمها بعدُ، فما يرَاهَا الحواريُّ حتى يَسيل لعابه طَمعا فيها، ولا يُخلي سبيلها إلا وقد حَبلتْ مِنه. ولأجل ذَلك كان يصطَنعُ من الحيل ما لا يتأتّى إلا لدُهَاة الشياطين، فكانَ - مثلا - يُنجبها من كسر الرّجلين وتهشُّم الرَّأس بهمس الجوَاب الصَّحيح في أذنِها، أو يخلِّلَ درسَه بإلقاء أشعار في فنون العِشق، أو يردِّد أثناء الشرح مَقطوعات من أغاني السَّيدة مَاكولاَ وَالاَطُوم، أو يستظهِرُ فصُولا من مُصنفات فنون الغَرَام والعِشقِ تتفتّتُ لسماعها الأكبادُ والقلوبُ ولو كانت حَديدا، أو يدعُوهَا إلى بيته لتساعدَه في غسل الملابس وطبخ الطعام وتنظيفِ المنزل،

زاعِما أنَّ زوجتهُ ذهبَت إلى مُستشفى الولادة لتضع له مَولُودا جديدا، ثمَّ يحتجزُها ليلة أو ليلتين يقضِي على امتدادهما وَطَرَهُ منها، ثمَّ يملي عَليها أجوبة دُروس شهر أو حَول بكامله، فتصلُ الطفلة إلى الفصل وتملأ فضاءَه شخيرا، لكن كلما ألقَى عليها الحِواريُّ سُؤالاً ألقتْ بجوابٍ كالوَحي أو طلقات الرَّصَاص... حتى إذا حَلَّ يوم الامتحان وعجزَت الطفلة عن فكِّ لُغز تميمتها عمدَ الحِوَاريُّ إلى الورقة وضمَّخَها بعِطر يُسمونه «شموسُ المعَارف الرُّوحانية»، وهو نوعٌ من الطيب لا يُستَخلَصُ إلا من أدمِغَة الرَّاسخين في العلم، فلا يجدُ مُصَحِّحُ ورقة الاختبار بُدّا من وضع نقطة مِائة على مِائة وتسجيل مُلاحظة «طَانْ طُولُونْ وِينْ»، وترجمتها: «نابغةٌ تستلم مَنصبها فورا»، فتصيرُ الفتاة لتوّها عرَّافة، أو سَاحرة، أو مَاشطة، أو نائحة، أو مُغسلة، أو طبَّاخة، أو مُهرِّجَة، أو قَينَة، أو خياطة، أو نسَّاجَة...

يومئذٍ، كانت البنتُ إذا تعذَّر عليها التسلُّلُ إلى شهواتِ الحِوَاريّ، وعادت إلى بيت أبويها مُهشَّمَة الرَّأس أو مُكسَّرة الرِّجل، قالت لها أمُّها: «قولي لحوارِيّكِ: قد سُرَّ أبي أيَّمَا سُرُور بوافر علمك. وهُوَ إذ يبلغك جليل شكره، يدعُوك لمأدبة عشاء تتلوها مُنَاظرة في علم كشفِ الدَّكِّ وإيضَاحِ الشَّكِّ»، فيتأبطُ الحواريُّ كتبا ويتوجَّه إلى منزل مُضيفه، لكنه بدَلا من أن يجدَ الأبَ والعشاءَ والمناظرة يجد جمهرةَ نِسَاء سافراتٍ عارياتٍ يَشربن الخمرَ ويُدَخنَّ ويغنينَ ويَرقصن... فلا يُخلين سبيله إلا بعد أن يُوقِعْنَ به وينتزعن منه عُهُودا ومواثيق يمنح بموجبها لطفلتهن نقطة مِائة على مائة...

أمَّا اليوم فيستحيلُ على تلميذةٍ أن توقع بحواريّها، إذ ما تأتي إلى الفصل مُسَرَّحَة الشَّعر، مُرتدية تنّورَة قصيرة تبدِي ما بين الفخذين، وتجلس في الطّاولة الأولى وتشرِع ساقيها للرّيح وتغمز المعَلمَ لحظة توجيهه السُّؤال إليها، ما تفعل ذلكَ حتى يصُدّها الحواريُّ صارخا في وجهِهَا بكلمات:

«اسمعي، أنت التي جلستِ في الطاولة الأولى ترومين الإيقاع بي. اسمعي يا ست، يا وسخة الفخذين والإستِ! لو جاءَتني أمُّكِ وأختكِ، وعمَّتُكِ وابنة عمتك، وخالتكِ وابنة خالتِكِ، وكان لعَسَلِ أسرَاركنَّ منَ الحلاَوَةِ ما لو سقطتْ قطرة منهُ في البَحر تحوَّلَ البحرُ إلى شَهد عَسَل لما أغويتنّني. فأجيبي عن السُّؤال وإلا هشَّمتُ رأسَكِ، «أَطَانْ أولو مِيكْ؟ أَطانْ أُولُو مِيكْ؟ (ما اسم هذا؟ ما اسم هذا؟)».

مِن قبل، أيضا، كان الأبُ متى لم يقنعْ بالمهنة التي يكون السَّاحر قد حدَّدها لابنه يعمَد إلى بيع ما يملكه مِن شجَر نخيل، وإبل، ومَاعز، وأبقَار، وأغنَام فيملأ كيسين أو ثلاثة دُولارا، ثمَّ يسُوق ابنه إلى دَار حِوَاريّ، ويقولُ له: «إنَّ قلبي لَيَتَمَزَّقُ كمدا وغمّا على فلذة كبدِي. فقد شئتُ له أن يصير وزيرا فإذا بالسَّاحر يجعل منهُ راهبا»، فيستلم الحواريُّ النقودَ، ويأخذ مِمحَاة سحرية، ثمَّ يمحُو خانَة مِن الخاتم الذي كان السَّاحر وضعَه على ظهر الصَّبي، فيكتبُ مكان صيغة: «كنْ رَاهِبا» عبارة «كُنْ وَزيرا»، وبذلكَ يلتحق الطفلُ بمدرسَة رُكوب الحمِير دُون أن يفطن إليه أحدٌ. وحتى يضمَن الطفلُ النجاح دَوما، كان

الحواريُّ يتآمر مَعه فينصحه بوضع عَلامة (×) في أسفل الزَّاوية اليُسرَى من وَرقة الاختبار، وبهذِه الكيفية كانَ يتسنَّى له أن يُمَيِّزَ صحيفةَ زَبُونه بين عشرات آلاف الأورَاق فيمنحها أعلى نقطة ويُذَيِّلُهَا بملاحظة «طَانْ طُولُونْ وِينْ» ليعتلي الطفل إحدى الوِزَارَاتِ غدَاة الإعلان عن أمِّ النتائج...

وقد رأيتُ بأم عيني، أيام كنتُ حواريا لمادة الترجمة بالمعهَد الدَّولي للغات، من مِثل هذه الأمور وغيرهَا ما لو ابتغيتُ ذكره لتطلبَ الأمرُ تخصيص سِفر بكامله لهذا الموضُوع. مِن ذَلك أني، كنتُ أختبرُ التلميذ فأجدُ رأسَه فارغا ككرة قدم، ما تملؤه إلا الرِّيحُ، فأمنحه نقطة واحِد على عشرين لتكونَ له حافزا علَى بذل مجهودٍ أكبر، مُتوقعا بذلكَ أن يأخذ التلميذ الأمرَ مأخذَ جدّ، فيصل في اليوم الموالي إلى القسم وقد امتلأ حيوية ونشاطا ورَغبة في الكدِّ والاجتهادِ. لكنه، بدَل أن يفعل ذلكَ كانَ يأتي صبيحة الغدِ وقد حملَ دربكة، ونايا، وبَرْبَطاً، ومِزمَارا، ودفّا، ثمَّ ينزوي في رُكن من القسم، ويأخذ في العَزف، والغناء، والرَّقص، وترديدِ مَقاطع من أغاني السَّيدة مَاكولا ولا طوم، وكلمَا نهيته عن ذلكَ أجابني بتحدّ مُوقِن: «لأتَبَوَّأنَّ - يا أستاذ - المرتبة الأولى يوم الإعلان عن أمِّ النتائج». وبالفعل، ما يُعلَن عن أم النتائج حتَّى يحل بالمؤسَّسة مَوكبٌ من أهل السيَّاسة في تدمِير الرِّئاسة، فيُمنَحُ التلميذ ناقة تجرُّ عرَبة امتلأت عن آخرها بِبَنَادِق مِسكٍ حُشِيت بعُقودِ ما صار يملكُ من رياض وبساتين نخيل وتين وزيتون، وقصُور، وقلاع، وقِطع إبل وبَقر وضَأن وبغال وحمير وخيل، جزاءَ احتلاله «المرتبة الأولى». وقد ظلَّ الأمر عندِي مصدر حيرة وغمّ كبيرين إلى أن أخبرني أحدُ الثقات

مؤخرا بالسِّرِّ في ذَلكَ: فقد كان التلميذ السَّابق ينحدرُ من أب ملكَ من الخيُول ما أتاح له تخصيص حِصَان غير مرئي لتنقيل صاحبنا الحوَاريّ حيث شاء، فكانَ يكفيه أن يتمنى مكانا فإذا بالتلميذ يحضرُ دون أن يراه أحدٌ من سكان المدينة، ممتطيا صَهوة الحصَان السِّرِّيِّ، فيردف الحواريَّ وراءه، ثم ينطلقُ به كالسَّهم ناقلا إياه حيث شاء، ينقلهُ إلى السُّوق، إلى الحمَّام، إلى المخبزة، إلى المقهى، إلى الميضاء العُمُومية، إلى الحيِّ المتعدِّد الجنسيَات، إلى الماخور المركزي، إلى سَاحة شرب الجعة، إلى مقهى النميمة، إلخ. كما كان التلميذ نفسُه يسافر دوريا إلى بلادٍ تشبه مَدِينة مَاقِنْطُوشَة، فكان، إثر كلِّ سفر، يُحضر للحواريّ أشياءَ عجيبة لم يهتد الطورُوبريَّانديُّون لاكتشافها بعد: قوارير ماء الخلود، بخور الطيران في الهواء، فواكه الخطوط الرّوحانية، مَشرُوب الغيبوبة الصغرى، مزامير الكون السُّفلي، أقمصَة سيُسَرُّ من سَيَرى، إلخ. غير أن التلميذ كلمَا جاءَ بهدايا جَديدة، استقبَلهُ الحِوَاريُّ بوجه عبوس، وجرَّهُ من يديه معا، ثم أدخَلهُ غرفا سرِّية بمسكنه، وأرَاه ما تكدَّس فيها من زرَابي، وأرَائك، ولوحاتٍ تشكيلية، وأقمِصَة، وسَراويل، وأغطيةٍ، وأحذية... أراهُ ذلك، ثمَّ استزاده قائلا: «كلُّ ما جئتني به اليوم ليس بشيء. فقد سبقكَ إليه غيرُكَ من تَلاميذ الأفوَاج السَّابقة. لن تتبوأ المرتبة الأولى ما لم تحضِر ما لا عَيني رَأت ولا أذني سمعَت ولا خَطر على بالي»، يقول له ذلكَ، ثم يدخله لغرفٍ سرية بالمنزل امتلأت، فعلا، بنظير كل ماجاء به التلميذ... واستمرَّ الأمرُ على ذلك النحو إلى أن أحضرَ التلميذ يوما صَحنا أبيضَ كبيرا، ما أن رآه الحواريّ حتى استشاطَ غاضبا وهمَّ بضرب رَاشيه على أمِّ رأسه بدبُّوس، كما يفعل

«الزَّالاَم بُوبُو» برأس الحِوَاريّ، وهو يعنفه قائلا: «لماذا جئتني بقصعة في هذا الحجم؟ أتحسبني مُطعِم قحطان أو مُضَر؟!، لماذا جئتني بصحن لإطعام سَبعين رجُلا وأنتَ تعلم عِلم اليقين أنَّ ما في البيت إلا أنا وربَّته وطفلان. ثمَّ هبْ أني مُطعِمُ قحطَان وعدنانَ وربيعة ومُضَر، لماذا جئتَ بالقصعة ونسيتَ الكسكسَ واللحمَ والخضرَ؟»، فضحِكَ التلميذ إلى أن استلقى على قفاه، ثم أمرَ الحواريَّ بلهجة انتصار مُنتشية: «ضع نقطة مائة على مائة يا أستاذ، فهذا بَّارَابُولٌ وليس قصعة»، قالَ الحوَاريّ: «وما البَّارابُولُ يا عزيزي؟»، قالَ التلميذُ: «مِرآة ترَى فيها إستَكَ وحِرّ أمّكَ»...

يومئذٍ كان الحواريُّ مَضرب المثل، وكانت مِهنة الحِوَارِ أمنية كل طورُوبريَّانديٍّ، فكان يُقال مثلا: «أبدَنُ من مُعَلِّمٍ»، «أسمنُ من أستاذٍ»، «أثرى من حِوَارِيٍّ»... وكان الرَّجُلُ متى أغضبته زوجته أو شحَّتْ عليه بالجمَاع هدَّدها قائلا: «لكِ أن تختاري بين أمرَين لا ثالثَ لهما: فإما تقولينَ سمعا وطاعة لكلّ ما آمركِ به وتشكريني، وإلاّ صرتُ حواريا فلا أحتاجُ لزوجةٍ قطُّ»، وإذا حمله مُشَغِّلهُ من الأعبَاء ما لا طاقة له به هدَّدَهُ قائلا: «عَاضٌّ بضرَ أمّه، وأيرُ بغلٍ في حِرّ أمّه من كانتْ حياته وقفا عَلى فتاتِ براز تدعُوه خبزا وكانَ هذا البرازُ وقفا عليكَ. فإما تخفظ عني سَاعات العمل وترفع أجرتِي أو أهجُر ورشتك وأصيرُ حواريا»...

يومئذٍ كثرت طلباتُ الالتحاق بأسلاكِ التعليم بحيث لو لُبِّيَت كاملة لصار لكلِّ صغير طورُوبريَّانديٍّ أربعة حواريين أو خمسة، وهُو ما

لم يُعدَم حدوثه بشكل ما في بعض المؤسَّسَات، حَيث كان الحواري يقضِي دُهُورا في تلقين عشرة أسطر، ثم يأتي القيِّمُ على المدرسة ومعه تسعون حواريا نزلوا توّا من وَراء قطعان الإبل، وأورَاش البناء، ومَعَاصر الزَّيتون، وحُقول الأرز، والماخور المركَزي، ودَكاكين النجارة والحلاقَة والحدَادة...، فيقولُ له: «لماذا تكلف نفسَك ما لا طاقة لها به؟ فهذه فقرةٌ مقدَّسَة يقتضي تفسيرها أن تُجَزَّأَ إلى أحرف وكلماتٍ وليس إلى أسطر أو مَقاطع»، ولا يُغادر القاعة إلا وقد ولَّدَ منها تسعينَ فصلا وأوْكَلَ لكل حواريّ جديدٍ مُهمَّة تدريس كلمة واحدةٍ لفصل واحدٍ على امتداد السَّنوات العشر المقبلة...

أما اليوم فقد صَارَت مهنة التدريس مِن الطهَارة والصّعوبة بحيث لا يطلبها إلا قديسٌ ضليع في الاستقامة ومجاهَدَة النفس، لأن الحجرة لا تُسَلَّمُ للحواري إلا بعد أن يصير كائنا شبه روحانيّ، لا يتزوَّجُ، ولا يأكلُ، ولا ينامُ، ولا يشتهي شيئا، لأنهُ صَار لا يتقاضى إلا حِوارا، إذ يقضي الحولَ في الفصل، فتأتيه الرُّسُل بأن حَان موعدُ استلام الحوَالة، فيتوجَّهُ إلى بيت المال، وما تطأ قدَمَاه عَتبة البناية حتَّى تلقى عليه خطبة طويلة في السَّحاب، والمطر، والرِّيح، ومَدّ البحر، وجزره، ثم يقالُ له: «ما رأيك في هذا الكلام؟»، ويُصرَفُ بالقول التالي: «انصرف، فقد استلمتَ حَوالتكَ». وإذا أبدى أقلَّ استغراب أجيبَ بالقول التالي: «أين كنتَ نائما لما أطلقنا البريح في المدينة لإخبار أهلها بأنَّ النقدَ قد حُرِّمَ وأنَّ الحِوار والمحادثة قد حلا محله؟!»... كما صَارت نحافة جسم الحِوَاريِّ مَضرب المثل، حَيث يقالُ: «أنحفُ من مُعَلِّم»، «بطنُهُ ضامرٌ كأستاذٍ»، «نفضوا أيديهِم من شفائه وهيَّأوا كفنَهُ وقبرَه

لأن جسمهُ هزُلَ ولونه اصفرَّ إلى أن صار كأنه حِواري»، وما إلى ذلك.، وصار القومُ يسَخِّرُونَ القصبَ والسنّارة بحثا عمّن يعلِّمُ أطفالهم ويجوبُون - لاصطياده - الماءَ والهواءَ ولا يعثرونَ عليه. وهذا هو السَّبب في كونهم يوكلون اليوم للحواري الواحِدِ ثمان مائة طفل أو أكثر، وفي كون الحجُرات الدراسية قد تحوَّلَتْ إلى أشبَاه إصطبلات، بحيث صرتَ ما تكاد تخطو خطوة داخِل إحدَاها حتى تزكمك روائحُ الضّراط والفساء ونتانة الآباط والأقدام...

*

* *

يقول الطورُوبريَّانديُّون: «كل امرئ زَالام بُوبُو بالقوة، ويكفي أن يمرَض فيتحوَّل إلى زالام بُوبُو بالفعل». وفعلا، فالمحتسبُ لا يُلزَم بأن تكون له سنّ مُعينة، ولا يخضع لتكوين خاصّ، ولا يُنظمُ أوقات محاسبته للحواريِّ وفق برنَامَج مُعين لأن الـ «زلمة بابوا» (أو الحسبة) ليسَت مهنة محددة الوضع والقانون بقدر ما هي حَالة نفسية تعتري الفردَ لحظة مُعينة فلا يحسُّ بنفسه إلا وهُو دَاخل حجرة دارسية يحاسِب فيها حِوَاريا وتلاميذه، وبذلكَ يمكن أن يتعَاقب على الحواريِّ الواحد، خلالَ حصَّة دراسيةٍ واحدة، طفلٌ في سنِّ الرضاعة، وامرأة عجوزٌ، وشابٌّ أنيقٌ، وحُبلى حان وقتُ وضعها، وكهلٌ يحتضرُ، وعاملٌ نزلَ توّا من ورشة بناء، وزان قام فورا عن عاهرة، ومَعشُوق لازالتْ تِلاَوَتهُ مُبلَّلَة بأمنية عَاشِق صُورته .. وبذلكَ أيضا يمكن للمرء أن يتعرَّضَ للتفتيش من قبل أبيه، وابنه، وأمِّه، وأخيه، وجدِّه، وعمته،

وجارَته، وعمِّه... دُون أن يستفيد من قرابتهم في أي شيء، لأن المحتسب عندما تعتريه رغبة التفتيش لا يعرفُ أينَ ستنتهي به قدَمَاهُ ما لم يكن راسِخا في الحدسِ. ثمَّ لأنَّه هو الآخر مُرَاقبٌ من قبل «زَالاَم بُوبُو» أكبر منهُ اللهم إذا تواطأ معهُ.

إنَّ كون الحسبة حالةٌ نفسية وليس مهنة لأَمْرٌ يُسَهِّلُ على الكثيرين ادعاءها لتصفية مختلف الحسابات مع الحواريين، إذ متى قالَ امرؤ: «إني أحِسُّ بوجع في الرَّأس، وإنَّهُ لينبئني بأن عليَّ أن أذهب لتفتيش فلان بن فلانة»، فلا أحدَ باستطاعته أن يتحقق مما إذا كان القائلُ قد أحسَّ فعلا بما قال أم أنه ادَّعاه فقط، وبذلك تصير قولته قدَرا لا مردَّ له. هكذا، فإذا انهزم طفلٌ في لعبة رياضية، مثلا، فإنه يقولُ للغالب: «أنتَ تملكُ اليومَ منَ القوَّة ما جعلك تفوزُ عليَّ بمنتهى السُّهولة. لكن اعلم أنكَ ما تكبر وتصير حواريا حتى أوقِع بكَ وأنا زَالاَمْ بُوبُو». وبالفعل، بمجرد ما يستلم فائز الأمس فصلا دراسيا يهرع إلى غريمه وهُو يقول: «إنني أحسستُ بوجعٍ في رأسي، وإنَّهُ لينبئني بأن عليَّ أن أحاسبك حَالا»، فلا يخلي سبيله إلا وقد ترَكَهُ جثة هامدة تسبح في بركَةٍ من الدماء. وإذا أساءت امرَأَةٌ إلى أخرى في حفل زَفَاف، كأن تُعَيِّرَهَا أمام الملأ بالمبالغة في الأكل أو الرَّقص، فإنَّ التي أسيءَ إليها تستعلم حالا حولَ ما إذا كان لغريمتها ابنٌ أو خالٌ أو عمٌّ أو أبٌ يمتهن التدريس فما تجدُ الأمرَ كذلك حتى تعلو وجهها نشوة الانتصار، فتقومُ وتخاطب مُعَيِّرَتَهَا قائلة: «لقد ألحقتِ بي منَ الأذى ما تعذَّر عليَّ دفعه، لكن اعلمي أنني أحِسُّ من الآن بوجعٍ في رأسي وإنه لينبؤني بأن عليَّ أن أذهبَ حالا لتفتيش قريبك المدعو فلانا بن فلانة الذي يشتغل في

مؤسسة كذا منذ عام كذا...». وبالفعل، تتحوَّلُ المرأة في اللحظة ذاتها إلى «زَالامْ بُوبُو»، فتصرُخ: «هاتوني قلما ودبُّوسا»، وتأخذ وجهة السَّاحة العُمومية، وحالما تصِلُ إليها ترتمي على «طَالُوكِيمِينِي» قريب غريمتها وتقضي الليلة بكاملها في قراءته حرفا حَرفا والتشطيب على عددٍ كبير من مُفرداته وفقراته وتَدوينِ مُلاحظات مُطَوَّلة في هوامشه، حتى إذا أوشكت الشمسُ على الطلوع كانت المرأة قد أتَمَّتْ فحص السِّفر الضَّخم بكامله وحَملته بنفسِها إلى القسم وجلسَت تترقَّبُ غريمها، فيأتي الحِوَاري ومعه كالعَادة جسمٌ ليضعه في زاوية من الحُجرة، غير أنه قبل أن يخطو خطوتَه الثانية دَاخل الفصل تفاجئه المرأة صارخة: «لا دَاعي لإعدَاد ما أنتَ مُعدُّه! فاليوم يوم حساب وعقاب!»، ثم تأمره بالجلوس بجانبها فتعرض أمامه مَا راجَعَته وما دوَّنَتْهُ حرفا حرفا وهي توَبِّخُهُ وتعنِّفُهُ وتضربه على أمِّ رأسه بالدَّبُّوس. تقول له مثلا: «لننتقل الآن إلى هذه الكلمةِ. فأنتَ تعلم أن حروفها مقدَّسة، وأنَّ مجرَّد النطق بها يقتضي إطلاقَ بُخُور كذا وتلاوة نشيد كذا، فأحرى كتابتها...، لماذا مرَرتَ على هذا كله مُرُورَ الكرام ودوَّنتَها بسُرعة البرق؟ فيمَ كنتَ تفكر؟...»، وقبل أن ينطق المدرس بحرفٍ واحد ليجيب تهوى عليه المرأة بضربةِ دبُّوس يتطايرُ لها الدَّم فوَّارا من رأس الحِوَاريّ... أو تقولُ له: «حَسَنا فعلتَ هُنا. فقد دوَّنتَ كلَّ تفاصيل "طقس التمهيد التعذيبي"، فكتبتَ: "كنتُ كسَّرتُ أرجل كذا تلميذا، وفقأتُ كذا عينا، وهشَّمتُ كذا رأسا لما قامَ صاحبُ المقعد الخلفيّ من الصَّفِّ الأيسر - اسمه فلان بن فلانة، لونُ شعره كذا، يسكن في زقاق كذا، رقم المنزل كذا، إلخ. - وقال كلمةً أوحِيَ إلي عَقِبَهَا أن أرفعَ حِصَّة التعذيب

التمهيدي حَالا فرفعتها"، لكن - تواصِلُ «الزَّالام بُوبُو» - لماذا لم تسَجِّل لونَ خُفَّي هذا الطفل؟ لماذا لم تُدَوِّن عدَدَ غرف بيته وثمن كرائها مع أنَّكَ تعرف حق المعرفة أنني أبحث عن منزل للكراء منذ ألف عام؟ أشَغَلَكَ عِشقُ النسَاء عن كتابة هذا؟ هِه؟ تكلم!...»، وكلما همَّ الحواريُّ بالإجابة أخرسَته ضربة دبُّوس أقوى من سابقتها، ولا تخلي الزَّائِرَة ساحته إلا بعدَ أن تتركَه، فوق الأرض، جُثّة هامدَة تسبحُ في وادٍ من الدِّمَاء.

سِفرُ المأثُورَات (4)

إذا كنتَ حِواريا طورُوبريَّانديّا وفطنتَ إلى أن المرأة السابقة بضربها إياك إنما كانت تنتقم من قريبة لكَ ثم ظننتَ أنه يمكنك الخلاص من ضَربات دبُّوسِها بالاحتجاج عليها كأن تصرخ في وجهِهَا قائلا: «لا يُعقل أن تضربيني لأنني أدَوِّنُ نُصُوصَ «الطّالوكِيمِينِي» بسرعة البرق مع أنكِ تعلمين عِلم اليقين أن ما لقنني شيُوخي طيلة السنوات العشر التي قضيتها في التكوين إلاَّ سُرعَة الكتابة وأنني لم أكتسِب هَذِه القدرَة إلا ببركة ما نفثه الإلهان السُّولُولُو والوُولُولُو في يديَّ...»، إذا ظننتَ ذلك أخطأتَ لأنَّ المرأة مَا تسمَع كلامَك ذاك حتى تزبد غيضا وتجرُّكَ من يديك وهي تقولُ لك: «تعَالَ نتحقق من زعمكَ ونختبرك إن كنتَ من الصَّادقين. لكن قبل ذلك، فلننظُر أوّلاً ما أحدثتهُ كلماتك من خسائر»، فتطوفُ بكَ في شوارع المدينة وأزقتها وأسوَاقها وكنائسها، ومَا من آفةٍ شاهَدَتها إلا ونسَبتها لك: فإن رأتْ متسوّلا قرَّعَتْكَ وعَنَّفتكَ قائلة: «أي ذنب ارتكبه هذا المسكين لتحوله بين عَشية وضُحاها إلى شحَّاذ؟ فقبلَ أن تنطقَ بكلماتك كَان من أكابر تجّار أهل البلد، وكان صَاحب إبل ونخيلٍ وقصور وحَشم وخَدم...، ولما قلتَ ما تجرَّأتَ على قولِهِ لم يفطن لنفسه إلا وهو مَرمِيّ في الطرقات

يتسوَّلُ!»، وإن شاهدتْ سُورا محطما أو مَدرسَة دشَّنها راهبٌ توّا وأمرَ بهدمها قالت لكَ: «مَا كان هذا السُّور الأثريُّ العظيمُ ليسقط، وما كانت هَذه المؤسَّسَة الأثرية النفيسَة لتهدَّمَ لو لم ترمِني بما رميتَني به لما اتهَمتَني بأنني أنتقمُ من قريبتك»... إلى أن تجلسَكَ بين أيدي مَشايخك القدَامَى فتسألهم وهيَ تغمزهم محرِّضَة إياهُم كي ينقلبُوا عليكَ: «قد زعَمَ هذا الحِوَاريُّ أنكم، مَعشر المشايخ، ما لقنتمُوه طلية السَّنوات العَشر إلا سُرعة الكتابة، وتجاوَزَ ذلكَ إلى إتيان ذنبٍ عظيم، فافترَى على الإلهين وقالَ: إنَّ السُّولولو والوُولُولو نفثا في يَديه كي يكتسبَ القدرةَ على ملء صَفحات الطَّالوكيميني بسُرعة البرق! أصادقٌ هُو في ما يدَّعيه أم كاذبٌ؟»، فما تكادُ تنهِي كلامَها حتى ينقلب القومُ عليكَ ويغلظون الأيمانَ بأنهُم ما علمُوك إلا فنون الإبطاء في الكتابة وأنَّ الإلهين مَا نفثا في يد أحدٍ إلا وصَارت أبطأ من سُلحفاة. فإن قبلتَ كلام شُيوخك جرَّتكَ المرأة من أذنيك وعادتْ بكَ إلى الفصل لتستأنفَ عقابك وتواصله إلى أن تتركَكَ جُثة هامدة وتنفضَ يديها منكَ، وإن أنت رفضتَه، كأن تقول: «هَذا غير معقول، إني ما أراكم عليَّ إلا مُنقلبين لأنَّ سَائلتكُم غمَزَتكُم، وقد رأيتها بأم عيني هاتي تفعل ذلكَ...»، أطلقَ الجمعُ ضجَّة عظيمة وهُم يتسَاءلون: «ما مَعنى الغمزُ؟! هه؟! ما معنى الغمزُ؟!»، فيُلفقون لكَ حالا تُهمَة الزَّندقة لأنَّكَ تكون حينئذٍ قد أحدثتَ كلمة - إسما جديدا، والحال أن المأثورة الطُّورُوبريَّاندِيَّة تقول:

«لو أحدثتَ من الكلمَاتِ والأسماء ما لو جعلتَه في كفَّةٍ وجعلتَ الأرضَ في أخرَى، ورجَحتْ كفَّة الكلمات وما رجحَت الأخرى لما

أحدثتَ مقدار قطرةٍ من بحرِ الكلماتِ والأسماء التي خلفها لك أجدادُك».

وبذلك تُسَاقُ إلى محكمةٍ لتُحاكَم ثمَّ تُعدَم حرقا أو شنقا.

*

* *

إذا دفعكَ ما سَبَقَ إلى الاعتقاد بأن أسهل ما يمكِنُ للمرء الطُّورُوبريَّانديِّ أن يقومَ به هو أن يزعم أنه أحسَّ بوجع في رأسه أنبأه بأنه صارَ «زَالام بُوبُو»، فيحمِلُ دبُّوسا ويتجه إلى المؤسَّسَات التعليمية ليُهَشِّمَ رُؤُوس من يَكره من الحِوَاريين أخطأتَ. فلهؤلاء من الذَّكاء ما يجعلُ في بعض الأحيان من المستحِيل على المرء أن يصِلَ إليهم مَا لم يُنقذه وحيٌ أو اختراعٌ بديعٌ، ولذلكَ فالطُّورُوبريَّانديُّون يقولون: «طوبَى ثمَّ طوبَى لمن رَامَ رأسَ حواريّ وأطاحَ به في أقلَّ من يَوم واحدٍ». وبالفعل، يحدُث أن يصلَ «الزَّالام بُوبُو» إلى فصلٍ دراسيّ فيقولُ في خاطره: «لن ينقطع يومان إلا وقد وجدتُ ما يستوجبُ قتل شبه الآدميِّ هذا، الذي يدعُونه حِواريّا»، غير أنَّه قد يقضي أسبُوعا بكامله وهُو يقرأ كتاب «الطَّالوكِيمِيني» حَرفا حَرفا تحت مجهر رصدِ الكواكب والمجرَّاتِ فلا يجد في السِّفر أقل هَفوة، فيعدُّ مسحُوق المسخ ويتهيأ للنّفث في الشيء المستخلَصِ اسمُهُ ليحوّله إلى شيء آخر، إلا أنه يجدُ الحواريَّ واقفا له بالمرصادِ، إذ يلازم الأشياءَ / مواضيع الدُّرُوس طالما «الزَّالام بُوبُو» في القسم ولا يسمَح له بالاقتراب منهَا قيد أنملة. وبذلكَ يقضي المحتسبُ أسبوعا أو أسبوعين دون أن يفلحَ في الإيقاع بغريمه،

فيستولي عَليه اليأسُ ويعمدُ إلى تقنية الأسئلة، فيسألُ الحوَاريَّ عن السَّمَاء، والأرض، وأحذِية التَّلاميذ، ودُور الكراء، وحَانات اللهو، ومواخير المدينة، وبَيض الأفاعي، والنسَاء المطلقات، وأسماء المواليدِ الجدُد... فإذا بالمسئول يجيبُ بمنتهى الدِّقَّة عن كلِّ ما يلقى عليه، فلا يملك «الزَّالام بُوبُو» إلا أن يطأطئ رأسَه مُعقِّبا: «نعم. طيِّب. أحسنت. هو كذلك...». وهكذا تتواصلُ لعبة الهرِّ والفأر بين الاثنين عَلى امتدادِ أسابيع أو أشهر، فلا يُوقفها إلا وَحيٌ ينزَّلُ على الحواريّ تنزيلا، فيضحكُ إلى أن يستلقي على قفاه، ثم يدُسُّ لمحاوره سُؤالا-فخّا بارعا كأن يقول له: «لن يجادِلَ أحدٌ في كونك حِوَاريا ممتازا. فقد أجبتَ بمنتهى الدِّقَّة عن كلِّ ما سألتُكَ عنه حتى السَّاعة. غير أنه أوحِيَ إليَّ أنَّ ما سبق كله لم يكُن سوى تمهيدٍ للسُّؤال الحاسم الذي يتوقف عليه مَصيرك»، ثمَّ يجهِّزُ الدَّبوس ويطرح سُؤالا مثل: «أنتَ تخالفُ بني البشر قاطبة في كونك تتنفسُ من أنفكَ مع أنكَ تعلم علم اليقين أنَّ الأنف خلِقَ للسَّمع وليسَ للشَّمِّ، فلماذا خرجتَ عن الإجماع؟»، أو يلتفتُ إلى ذقن الحِواريّ، فإن وجدَهُ حليقا صَاح في وجهه: «لماذا خرجتَ عن القوم بحلق لحيتك؟»، وإن وجده ملتحيا صرَخَ في وجهه: «لماذا قصَصتَ عقلَكَ وعَفيتَ لحيتكَ من بين الناس أجمعين؟»، وبذلكَ يوقع غريمه في الفخِّ ويثبُ على رأسه. وإذا صدَف أن اهتَدَى الحِوَاريّ إلى جَوَابٍ دَامغ، فإنه يستحيل على «الزَّالام بُوبُو» أن يثب على رأس الحواريّ ما لم يتلقَّ وحيا جديدا، يتلقاه، مثلا، كأن يُقعِي مثل كلبٍ ثمَّ يشرَعُ في النباح قائلا: «والآن أجبْ عن هذَا السُّؤال: «عَوْ عَوْ عَوْ؟»، وآنئذٍ مهما يَقل الحواريُّ فإنه لا يتلقَّى إلا ضرْباتٍ على أمِّ رأسه. فإن تكلم باللغة

البشريَّة ضرَبَهُ «الزَّالام بُوبُو» وهو يرفق كل ضرْبَة بالنُّباح: «عَّوْ عَوْ!»، وإن أجابَ بالنباح ضربَه المحتسبُ معنفا إيَّاه بكلامٍ بشريّ: «طلبتُ منكَ أن تجيبَ عن السُّؤال ولم أطلب منك أن تعِيدَهُ عليَّ، فأنا أعرفه حق المعرفة بما أنني أنا الذي طرحته عليكَ وليس أنت!، وفوقَ هذا كله، فإنكَ - بخلافي - لا تملكُ الحق في طَرحِ أيّ سؤُال عليّ»...

*

*   *

إذا سألتَ أي طُورُوبريَّانديٍّ، وإن كان مجرَّدَ طفل في سنِّ الرَّضَاعة، عن سبب ضربه للحواريين أو وجَّهتَ له لوما عن سوء مُعاملته إياهم ضحِكَ من قولتك كثيرا ثم رَوى لكَ أسطُورَةَ أصل «الزَّالاَم بُوبُو» التي تقول إحدَى رواياتها:

«فِي البَدءِ كَانَ الحوَاريُّ إِذَا حَانَ أَجلُ استلامه القسمَ عقدَ معه السَّاحر جلسة طويلة تستغرق ثلاثة أيَّام يلقنه طيلتها مجموعةً من الأوَامِر والنَّوَاهِي، حتى إذا آنَ أوانُ انصرافه قال له: "اعلم أنَّ لي عيونا وآذانا تأتيني بكلِّ ما أنت فاعله، فيمكنني أن أرَاقبك وأنتَ تأكلُ، أفتشكَ وأنتَ نائمٌ، أحَاسِبك وأنتَ فوق زَوجَتِكَ...، لأنَّكَ لاترَانِي وأرَاكَ". ولم يكن هذا الكلامُ أكثر من محض ادِّعاء، وهو ما لم يبطئ الحواريون في إدراكِه، فكانَ الواحدُ منهم ينصتُ لقول السَّاحر، ويقولُ: "نَعَم سيِّدي. حاضر سيدي. سأكون عندَ حُسن ظنِّ سيدي..."، ثم ينصرف إلى القسم، فلا يعمل بداخله إلا ما طاب له، فكانَ يصرف ثلاثة أيام مَع التلاميذ في الضَّحكِ

والغناء والرقص وقصِّ الحكايات والنُّكت والأحَاجي دُون أن يمهد للدرس أو يسألَ أي تلميذٍ أو يكسر أيّ رِجْل... حتَّى إذا حلَّ مسَاء اليوم الثَّالث كشفَ لهم عن الاسم - اللغز وأمرَهم بتدوينه في دفاترهم، ثمّ قال لهم: "إذا غادرتم المدرسة وسألكم أي كان عما فعلناه داخلَ الفصل فقولوا له: ضرَبَ المعلمُ كذا تلميذا، وكسر كذا أنفا، وهشّمَ كذا رأسا، ثمّ قام فلانٌ بن فلان الساكن بالحي الفلاني، زنقة كذا، رقم كذا...، فقالَ: هذا كذا، فانتهى "طقس التعذيب التمهيدي"، ثمَّ أرانا الأستاذ شيئا يُشبه كَذَا، فقضينا ثلاثة أيَّام في الأخذ والرَّدِّ، فزَعَمَ فلانٌ أنه كذا، وقال فلانٌ إنه كَذا...، وقرأنا نشيد كذا على ذِكر كذا، ورقصنا رقصَة كذا عَلى ذِكر كذا، وتوَّضَأنا كَذَا مرة على ذكر كذا... ثم كشفَ عنه الحوَاري فإذَا هو كذا...". وبتلكَ الطريقة كان الحواريون يفلحُون في إيهام أهلِ الأمر بأنهُم يعطون دُروسا فعلا، ولم يكن بمقدرَة أي ساحر أن يضبطهم متلبسِين لأنه متى داهم الحِواريَّ بزيارة مُفاجئة وجَدَ كل شيء على أحسن ما يُرام، ومتى تفحصَ "الطَّالوكِيمِينِي" وجدهُ مملوءا عن آخره بمنتهى الدِّقة والعناية، ومتى سَأل التلاميذ عند خرُوجهم من المدرَسَة قالوا له ما أوصاهم الحواري بقوله وأرَوه ما بأرجُلهم ورُؤوسِهم من كسُور وهمية. فبقيَ الحالُ على ما كان عليه إلى أن ضجت المدينة ضجَّة عظيمة لما أصَابه الحواريون من ثراء فاحش ومن طُول قامات وسمنة أبدان وكثرة أموال، فجاءَ ساحرٌ داهية محتالٌ لم يزر فصلا ولم يتفحَّص "طالوكيميني" ولم يسأل تلميذا، بل عمد

إلى حواري وقالَ له: "هَاتِ عَصَاكَ"، ثم انصرفَ، فما مضَى يومٌ واحدٌ حتى جاءت الشرطة وجلدَت الحواري إلى أن أقر بكل ما نسبه إليه الساحر، فلما اتَّضَحَ أن ما نُسِبَ إليه كان في مُنتهَى الدّقة سُئل الساحر: "كيفَ عرفتَ هَذا كلَّهُ عن بُعد؟"، أجابَ: "بالزَّالام بُوبُو"، قيل له: "وما الزَّالام بوبو؟"، قال: "جهازٌ يسجّل الصوت، اخترعتُه ثمّ أخفيته داخل عصا الحواري دون أن يفطن"، فقال القومُ: "فلنجعل من الآن فصاعدا لكل حواريّ "زالاَم بُوبُو " يفتشه، ومنذُ ذلكَ الوقت ما من أحَدٍ من أهل المدينة مرض إلاَّ وقال: "إنّي لأحسُّ بوَجَع في رأسِي، وإنه لينبؤني بأن علي أن أذهب إلى فلان بن فلانة كي أحاسبه"، ثم أمر بقلم ودبُّوس وهرول إلى "طالوكيميني" غريمه».

*

* *

إذا اعتقدتَ أن الطورُوبريَّانديين قومٌ غارقون في التقليدِ وأنَّهم لا يفكّرون إطلاقا في إصلاح نظامهم التَّعليمي أخطأتَ، لأنهم نجحوا في تبديد العَدَاوة التقليدية بينَ الحواريين وأهل الحسبة، فصارت الموضة المعمُول بها اليوم في محاسَبة الحواري هيَ أن يأتي «الزَّالاَم بُوبُو» إلى القسم ويستأذنَ الحواري بالدُّخول مسخِّرا لذلكَ جميع الحيَل - لأنَّه صار من حقّ الحواريّ ليس أن يرفض زيارة «الزَّالام بُوبُو» فحسب، بل وأيضا أن يطرده من القسم - كأن يقدِّم له رَشاوي على شكل هَدَايا (قطع شوكولاطة، بارابول، عُلب تبغ، جَوارب، قوارير عطر، علب جعة،

رضَّاعَات ومصَّاصَات، أضحية عيد النار المقدسة...)، أو يتنكَّر في هيأة نجار أو حدَّاد فيدَّعي أنَّه جاء لإصلاَح البَاب أو إحدَى النَّوافذ إلى أن يؤذَن له بالدُّخول، فيلج الحجرَة ويتظاهَر بإصلاح النَّافذة أو الباب وهو في الحقيقة يُتابع الدَّرس خِفية - باهتمام شدِيد - حتَى إذا انتهَى الدَّرسُ قامَ وصَافح الحِواريّ بحرَارة، ثمَّ قالَ له: «نِعم المدرِّس أنت، وياليتَ جميع الحواريِّين كانوا مثلكَ!»، وانصرف. وما يكادُ يمضي يوم أو يومان حتى يأتِي رسُولٌ إلى الحواريِّ بصحيفةٍ تدعوه لحضورِ مأدُبة يقيمها زائره السابق تكريما له. ولهذا الغرَض يكون «الزَّالام بُوبُو» قد استدعَى مائة حِواريّ أو أكثر، فيلبس كلُّ مدعُو أبهَى الحلل ويتطيَّبُ بأغلى العُطور ويتوجَّه إلى المكان المعلوم، منتظرا أن يصرفَ الليلة في اللهو والمرَح والاستمتاع بشُرب أقدَاح النبيذ على اهتزاز أردَاف الرَّاقصَات العِظام المتخصِّصَات في تجسيد أغاني السَّيدَة ماكولا والاطوم وأشعَارها الشَّجية. غيرَ أنه فورَ وُصُوله يكتشف أنَّ الأمرَ لا يعدُو مجرد خدعَة طورُوبريَّانديَّة أصيلة، إذ عِوَضَ أن يجد نفسَه داخل قصر فُرشَت أرجاؤه بالزَّرابي ومُلئت مَوَائده بالأطباق والصُّحُون والكؤوس والفوَاكه والخمور يلقى نفسَه في قلب إحدَى المدارس قابعا وسَط حُجرَة دِرَاسيَّةٍ...

يأمر «الزَّالاَم بُوبُو» الحواريين بالجلوس ثمَّ يخطب فيهم قائلا: «إنني لأطمئنكم الاطمئنَانَ كله بأنني لن أحاكِمَ منكم أحَدا، ولن أضربَه على أمِّ رأسِه بدبُّوس، ولن أطرده من عمَلِه، ولن أشكِّكَ في كفاءته، ولن أتطرَّقَ معه قط لمسألة الأسمَاء لأنه لولا إتقانكم إياها وإحاطتكم بها جميعا لما صِرتُم حواريين، ولأنَّني لو أثرتُها - لا فعلتُ - لارتكبتُ

معصية التشكيك في عِلم المشَايخ الذين أجَازُوكُم... وكلُّ ما أودُّه من حضوركم هو تدقيق بعض الأمُور البَسيطَة...»، ثمَّ يغادر القاعَة ويعودُ وهو يجرُّ حمارا بمجرَّد ما يرَاه الجالسُون يضجُّون ضجَّة عظيمة لا تنهيها إلا كلمَةٌ جديدةٌ يطلقها «الزَّالاَم بُوبُو» على الحاضرين كقنبلة: «إنَّني لأؤكِّدُ لكم ثانية بأنَّني لن أشكِّكَ إطلاقا في ما لدَيكم من الأسماء؛ لن أسْألكم عن اسم هذا الشَّيء، فهُو - كما ترون - حمارٌ لا غبار عليه... وكلُّ ما سَأطلبه منكم هُوَ كيفَ نركبُ هذه الدَّابَّة؟ ومِن أين نركبها؟»، ثمَّ يأخذ في مناداة الحواريين واحدا واحدا، وعَقِبَ كل نداء يطلب من المنادى عليه الرُّكوب، فيتعاقب الجمعُ طيلة يومين علَى رُكُوب الحمار: بعضُهُم يمتطيه من العُنق وبعضُهُم يمتطيه منَ الظَّهر، بعضهُم يتسَّلقه من المؤخِّرة وبعضهُم من الرَّأس، بعضُهُم يضَع طَاوُلة أو كرسيا فيتسلقُ ويركبُ وبعضهُم ينادي جماعة ويأمرُها بحملِه ووضعه فوق البَهيمة...، وعقبَ كل ركبة يعلق «الزَّالاَم بُوبُو» مُلاَحِظا: «جيِّد. ركوبُكَ ممتاز، لكنك نسيتَ أن تتوضأ وضوء الهواء قبل صُعُودك الدَّابَّة»، «حسنا، كدتَ أن تكونَ أحسنَ الرَّاكبين لولا أنَّكَ أمسكتَ بالحمَار من أذنيه، فهللاً أمسكته من ذَيلِه في المرَّة المقبلة؟!»، «أنت أحسن الرَّاكبين جميعا، لكن لماذا لم تقرأ مقطعا من سِفر الهَواء قبل أن تتوضأ وضوء الماء؟!»...، وهكذا إلى أن يركَبَ البهيمةَ كلُّ من في القسم أربع مرَّاتٍ على الأقل. وآنئذ يُلقي المحتسب دَرسا طويلا في الرُّكوب، يستغرق ساعاتٍ عشر، يخلص منه إلى الخلاصَة التاليةِ: «من أين تركبُوا الحمَارَ فرُكوبُكُم جائزٌ، بل جيِّدٌ، لأنَّه لا توجَدُ ركبة مِثالية ولأنَّ المهم هو أن تركبوا، والأهمُّ هُو أن تأتوا إلى هُنا لتتبادلوا التَّحية

وصلة الرَّحِم، وتسمعُوا دَرسِي هَذا...»، ثمَّ يخلي سبيلهُم ليلتحِقُوا بحجراتهم من جَدِيد...

*

* *

إذا كنتَ حِوَاريّا طورُوبريَّانديّا وظننت أنه يمكنك الخلاص من هَذا التَّحصِيل للحاصل بأن تقولَ، مثلا، «للزَّالاَم بُوبُو»: «اركبْ أنتَ كي نقتدي برُكوبك فنوفِّر عليكَ تعبَ الملاحظة وإلقاء الدَّرس وعلى أنفسِنا عناءَ هذا المجيء» أخطأتَ، لأنك ما تُلقي بطلبكَ حتَّى يصدَّكَ المحتسبُ بأحد جوابين: فإمَّا سيقولُ لكَ: «نحنُ معشرَ الزَّالاَم بُوبُو حُرِّمَ علينا رُكُوبُ الحمير. فلو كانت هَذه الدَّابَّة بقرَة لرَكبتها»، وهذا الجوابُ ليس إلا خُدعة لأنَّ المحتسبَ يستضيفكَ لمأدُبَة مُوالية فتجدُه قد دَعَاكَ لرُكوب بَقرة، وتقولُ له: «هِي ذي البقرة، فاركبها وقِنَا عَذَابَ الرُّكوب!»، لكنه يجيبك: «نحنُ معشر الزَّالاَم بُوبُو حُرِّمَ علينا امتطاءُ البقر. فلو كانت هذه الدَّابَّةُ حمارا لركبتها»، أو يقولُ لكَ: «اعلم يابُنَيَّ أني لو ركبتُ هذا الحمارَ لصارَ قردا أو نعجة، ولاضطررنا حينئذٍ إلى البث في مسألة الاسم، ولأُجبِرْتُ على إحضار دبُّوسٍ وتهشيم رُؤُوس كثيرة منكم، وهذا أمرٌ لا طاقة لي ولكم به»...

وإذا ظننتَ أنه يمكنك الخلاصَ بأن تعمدَ، مثلا، إلى حشوِ أذنيك بالقطنِ كي لا تسمع كلامَ المحتسب أو وَضع نظَّارتين كي تتمكنَ منَ النوم أو تحويل عينيك دونَ أن يفطنَ لك أحدٌ من الحاضرينَ، أو الشُّرُود بحيث توهِمُ رائيك بأنَّكَ تتابع المشهدَ والخطب بانتباهٍ شَديدٍ

فيما تكون رُوحُكَ مُسَافرة في الأجواء العُليَا ووحدَه جسدُكَ الحاضرُ...، إذا ظننتَ ذلك أخطأتَ لأن الرُّكوب لا يؤذَنُ به إلا بعدَ فحص آذان الرَّاكبين أذنا أذنا وتجريدهم من النظارات، وعُلب السَّجائر، والأورَاق، والأقلام، وكُلِّ ما من شأنه أن يلهيهم عَن متابعة ما يجري في الفصْلِ أو يفيدهم في تجزية الوَقتِ، ولأنه - فوقَ ذلك كله - يتمُّ إجراء تحليلٍ لعينة من بُول الحاضرين ودمهم لضبطِ من قد يكونُ تناولَ خمرا أو مخدِّرا ليهدِّئ أعصابه ويُزيّن لخوَاطره مشاهدَ القاعة ووقعَ الكلمات... وأثناءَ الرُّكوب لا يكفُّ «الزَّالاَم بُوبُو» عن تنقيل عينيه بين عُيون الحواريين، وكلمَا شكَّ في شُرُود أحدهم وَقَفَ قبالته ورَسَمَ في الهواء حرَكاتٍ دائرية وهو يقول: «أطَانْ زُورُو سُولُولُو وُولُولُو! أطَانْ زُورُو سُولُولُو وُولُولُو!»،وترجمتها حرفيا: «سُبحَانَ الإلهين سُولُولُو وُولُولُو! سُبحَانَ الإلهين سُولولو وُولُولُو!»...

*

* *

إذا اعتقدت أن العِلمَ الطُّورُوبريَّاندي علم لا فائدةَ ترجى منه لأنَّ الحواري يأتي ويقولُ للتلميذ: «إنَّ المرأة خيمة»، ثمَّ يعودُ في اليوم الموالي ويقولُ له: «إنَّ المرأةَ تمرٌ»، ويتراجعُ بعد ذلك فيقولُ: «مَا التّمر إلا قنفذ»، ثمَّ يرتدُّ صبيحة الغد فيقولُ: «ما العفريتُ إلا نفريتٌ»... أخطأتَ، لأن الأمرَ لو كان بهذه السُّهولة لما كان الحواريُّ الغشَّاشُ يصَاب بالفزع لمجرَّد رؤية شبح «الزَّالاَم بُوبُو» فلا يجدُ بُدّا من القفز من نافذةِ الفصل وسُور المدرسَة وإطلاق الساقين للرِّيح. ثمَّ لو كانَ

الأمرُ كذلكَ لما كَان هذا الانتفاخ للرَّأس الذي يُصيبُ كلَّ خِرّيج طورُوبريَّانديٍّ من جرَّاء ما يحشى به من عُلوم ومَعارف ولما تقلدَ الأطفالُ الطورُوبريَّانديُّون أعلى المناصِب في بلادهم وفي الخارج فورَ إنهاء دراستهم، وبالتَّالي لما غابت كلمة بطالة منَ المعجم الطورُوبريَّانديّ، بحيث إذا سألتَ طورُوبريَّانديا: «ما البطالة؟» فغَرَ فاهُ فيكَ، وإنْ ألححتَ عليه بالسُّؤال أجابَك متمتما: «ما أراها إلا طائرا أو سمكة، إن لم تكن تميمة». ثمَّ إن التلميذ الطورُوبريَّانديّ، يكفيه أن يتعَلمَ اسمين فيصيرُ لتوه جزَّارا، وثلاثا فيصبِحُ راعيا، وأربعة فيصيرُ جلاَّدا أو سيَّافا... وإذا بَدَتْ هذه الوظائفُ وضيعة فذلك لا يعودُ إلا للتقدُّم العلميّ الهائل الذي أحرزَ عليه الطورُوبريَّانديُّون بالمقارنة مع سَائر الأقوام، ذلكَ أن التلميذَ إذا لم يتعلم سوى حرفين اثنين ولم يرغب في البَقَاء بين بني أمّه، فإنَّ أقلَّ ما يمكن أن يجنيه من حرفيه هُو أن يصير ثريّا بين عشيةٍ وضُحاها، ولأجل ذلكَ يكفيه أن يمتطِيَ دابَّة ويأخذ وجهَة الحي المتعدد الجنسيات إلى أن يصلَ إلى بَلدَة تُدْعَى مَاقِنْطُوشَة، وهي بلادٌ يسكنها قومٌ كالطورُوبريَّانديّين، أصابوا من العِلم ما جعلهم يكتفُون بصباغة حميرهم بطلاء فِضّيٍّ فتصيرُ تسرع في عَدوها كالبرق، وتمخرُ عُبَابَ الماء، وتطيرُ في الهوَاء... إلا أنهُم لا زالوا قوما بدائيين - في نظر الطّورُوبريَّانديّين - لأنَّهُم يمشون عراة، ولأنَّ المرأة منهم تشبعُ زوجها شتما ورَكلا ولكما لأقلّ هفوة يرتكبها، ولأنهم يُنصِّبون عليهم حُكاما لازالوا في سنّ الرَّضَاعة، ويعتبرون الناسَ جميعا سَواسِيَ في الحقوق والواجبات، ويُبيحون زواج الرَّجُل بالرَّجُل والمرأة بالمرأة... وهم يَعملون ليلَ نهَار من أجل اللحَاق بالطورُوبريَّانديّين.

وبمجرَّد ما يحلُّ التلميذ الغاضبُ بقرية مَاقِنْطُوشَة يقولُ لأهلها: «هاتوني قلما وصَحيفة لأحدِّثكم عن نقائص الطُّورُوبريَّانديّين»، فيُدَوِّنُ مُصنّفات يزعم فيها أنَّ بني أهله قومٌ مجانين لا يُعلِّمون أطفالهم سوى حماقاتٍ وترَّهَاتٍ نطقَ بها أعمى وأعرج زَعَمَا أنهما إلهان، وأنَّ حواريهم كلهم لوطيُّون يُراودون الصبيانَ في حُجُرات الدَّرس، وأنَّ نساءهم كلهن عَاهِرات لأنهن محتجبات الوجوه سَافرات المؤخِّرات، وأن السَّبب في تهافت الطُّورُوبريَّانديّين على كلِّ مقيم جديدٍ بينهم إنما هُو كَون المرأة منهُم تظلُّ تتبوَّلُ في الفراش إلى أن تبلغَ سِنَّ الأربعين... ثمَّ يمضي أبعدَ من هذا كله، فيُخرج نسخَة من سفر المأثورَات فيسيء قراءَتها ويُؤَوِّلُ مضَامينها بما لا يقبله عقلٌ ولامنطقٌ لما يبعثُ عليه من الضَّحِك... حتَّى إذا انتهَى أقعَى ككلبٍ وتبوَّلَ وتغوَّط على الكتابِ، فيفرحُ أهلُ ماقنطوشة أيما فرح وهم يردِّدُون: «إذا كانَ بنو قومِك الطورُوبريَّانديُّونَ على ما ذكرتَ فإنا بهم لَلاَحِقُونَ وإنَّا لهم لسَابقُون ببركة نبيتنا وأمِّنَا مَارَامَارَا»، ثمَّ يفتحونَ له خَزائنَ بيت مالهم ويُغدقون عليهِ من الذَّهب، واليَاقوت، والمرمُر، والمرجان، والمسكِ، والفضَّة، وبساتين التين والزيتون والنخيل، وقطعان الإبل والبقر والماعز ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطر على بال...

*

* *

وبعـد،

فإذا بَدَا لكَ ما حكيتُه لكَ حتى الآن إيغالا في مَسَالك الوَهمِ والخيال أو ضرباً من الكلام الذي لا يمكنُ أن يصدر إلا مِن امرئ يقطن الزُّهَرَة أو المريخ أخطأتَ. وإن شئتَ التَّحقق منه فترصَّد خطوات أيّ كان من أقاربك وباغِثهُ وقد تجرَّد من أقنعته جميعا إلى أن بَدَا على حقيقته: طورُوبريَّانديّا قحّا أصيلا لا غبار عليه، ثمَّ اقصُصْ عليه ما رَويته لكَ. فما تنهِي حِكايتك حتَّى يضحكَ إلى أن يستلقي على قفاهُ ثم يقولُ لكَ: «إني لأحسُّ بوجع في رأسِي، وإنه لينبئني بأن عليَّ أن أذهبَ لمحاسبةِ صاحبكَ هذا...». آنذاك، قل له: «عفوا، ثم عفوا يا سيدي! فصاحبي ما زعَم أن السُّولُولُو والوُولُولُو نفثا في يَديه يَوما، ومَا رام مَلء "طَالوكِيمِيني"، ولا ترقَّب "زَالاَم بُوبُو". إنما هُو بَرقَلَ شيئا نسميه نحن كتابة»، ثمَّ نبهه إلى أنَّني قد احترزتُ كليا من أن يختلطَ نصي بكتاب «الطَّالُوكِيمِينِي»، ولذلكَ أكثرتُ في السِّفر الحالي، وأخويه المقلبين وهما «سِفرُ المحبة» و«سِفرُ السياسة»، من استعمال عبارات خاصة مثل: «إذا ظننتَ كذا... أخطأتَ لأنَّ كذا...». فإن أفلحتَ في إقناعه فقد كفيتَني شرَّه، وإلا فاخبرني لأني سأجدُ نفسي آنذاكَ مضطرّا لسدِّ ثغرات هذا النص فأحدثك عن الحبِّ الطورُوبريَّاندي، وأروي لكَ عن المرأة التي إذا أحبَّتكَ قتلتكَ، وعن التي تأويكَ في ضريحها أياما طَويلة وكلما قلتَ لها: «قبِّليني» أجابتك: «اتَّق لعنة الدراجة يا رجُل! فأنا امرأة محصَّنَة أخشى بطشَ الإلهين!»، وعن الرَّجُل الذي يَغار على زوجته فيعمَدُ إلى بطنٍ بلاستيكيّ ويلصقه بجسمِهَا دُون علمها فيُرعبُ الرِّجَال بحبلها الوهميِّ سنينا وأحقابا...، ثمَّ أحدِّثكَ عن السياسة

الطورُوبريَّاندِيَّة، فأقصُّ لكَ عن الإصطبل المركزيِّ الذي يُدعَى «الطَّانْ الرَّان ضُو» (مجلس التشاور) ونقاشاتِه البيزنطية وحُرُوبه البونيقية، وعن الرَّجُل الذي جعَلوا على فمه كمامة وأودَعُوه السِّجن لأنه كشف عن اللصِّ الذي سَرق أوراقا تفوح منها رائحة بُرَاز الكلب، وعَن المرء يقولُ: «قد أوحي إليَّ من العِلم ما لم يُوحَ بمثله لأحدٍ من قبل. فانصبُوا لي خيمة وهَاتوني قصبا وسكينا أجعل لكُم الأوراق دُولارا، والحميرَ أبقارا، والصَّحاري أنهارا»، فيُمنَح مَا طلبَ، غير أنه ما يكاد يَدُور عَليه الحَوْلُ داخل الخيمة حتَّى يخرُج شاهرا دبُّوسا في يدٍ وخنجرا في الأخرى وهو يصرُخ بأعلى صَوتِهِ: «أينَ الأعمى؟ أينَ الأعرجُ؟ أينَ السَّاحرُ؟ أينَ الرَّاهِبُ؟

مقام مؤانسة الحمار

ما انتهى الرَّاهبُ من تبليل عينيَّ بالسَّائل السِّحري حتى انقلبت المدينة أمَامي إلى إمبرطوريةٍ من حمير، فلم أعُد أرى حيثما وليتُ وجهي إلا حمارا، وكان ذلكَ يُقلقني كثيرا لأنني كنتُ أضطرُّ دوما إلى مُراجعة هيأتي خِشية أن أصير بدَوري حمارا لاسيَّما لما علمتُ أن هذا الأخير بدوره لا ينجو من اجتياز طقسٍ تطهيريٍّ يسمى «طقس التطهير الحماري» يتعَلق الأمرُ فيه أيضا باستئصال الدَّنَس الجنسي المحتمل أن ينشرَه هذا الحيوانُ في المدينةِ، وذلكَ بتحييد جنسه. ولهذا السَّبب، ما من أنثى تصلُ إلى المدينةِ إلاّ ويتمُّ تحويلها - عبر الطقس السَّابق - إلى ذَكَر، ولِذا يستحيلُ أن تجدَ أتانا واحدة بينَ عشراتِ آلاف الحمير الذين تعُجُّ بهم المدينة. قلتُ للرَّاهب:

- لماذا تنعدمُ إناث الحميرِ بالمدينة؟

- تلكَ طريقتنا في تطهير نسَائنا وأطفالنا.

- لكن ألا ترى أنَّ ذلك يجبر البهَائم على تعاطِي اللواط؟

احمرَّت وجنتاه كأنّه ضُبط متلبسا، فأجابَ مرتبكا:

- إنَّ ذلكَ عندنا أيسرُ من الحبلِ والولادة...

قاطعتهُ صارخا في وجهه:

- أنتَ زنديقٌ!

إلاّ أنني لم أفطن إلا وعَصا تَهوى على ظهري محدثةً به وَجَعا لازالَ مُستمرّا إلى الآن، ثمَّ سمعتُ كلاما رطنا اختلطت فيهِ العرَبية الفصحى باللهجَة الطورُوبريَّاندِيَّة المحليَّة، لم أميز فيه سوى كلمة «شيطان» التي ترددت كثيرا على لسَان الرَّاهب.

آهٍ كم كنتُ غبيا لما تجرَّأتُ على مُفاتحة الرَّاهِب في هذا الموضُوع! فللحمار عند الطورُوبريَّانديّين مكانة لا يُضاهيها سِوى مَنزلة المرأة: فما مِن منزل إلا وبه حمارين أو ثلاثة عَلى الأقل. وَكثيرا ما يخلط الرَّجُلُ بين إحدى بناته وواحدٍ من حميره فلا يَنجح في تمييز أحدِهما عن الآخر إلا بإجرَاء طقوس خَاصَّة أو الاستنجادِ برَاهبٍ. وأحد الأركان الأساسية في الدِّيانة الطّورُوبريَّانديَّة اسمه «مَقامُ مُؤَانسَة الحمَار»، والمثلُ القائل «الحمارُ يبشِّرُ بالدُّولار» يُعتبر مفخرة طورُوبريَّانديَّةٍ بالإجماع.

*

* *

إذا سمعتَ طورُوبريَّانديّا يحدِّث آخرَ ويقول له: «اركب شيطانكَ» فاعتقدتَ أنه يحدثه في أمور دينية أخطأتَ، لأنه إنما يأمرُه بركوب حماره لاغير. وإذا ناداكَ أن تعالَ «يا رأسَ الحمار» ورفضتَ الامتثال لأمره أو تشاجرتَ معهُ اعتقادا منك بأنه أهَانكَ أو شتمكَ

اعتبركَ زنديقا. وإذا سألكَ أحدُهُم عن كيفية وُصُولك إلى المنطقة وقلتَ له: «عَلى متن طائرةٍ» أو «على متن باخرةٍ» لم يفقَه مِن كلامِكَ شيئا، وإذا فطنَ لقصدِك صُدفة بادر فورا بتصحِيح جَوَابك وإرغامكَ على تكراره على مَسَامِعِه قائلا: «قلْ: أتيتُ على متن حمار الماء، ولا تقلْ: أتيتُ على متن باخرةٍ. قل: أتيتُ على متن حمار الهواء، ولا تقل: أتيتُ على متن طائرة». وإذا لم تفعل اعتُبرتَ زنديقا أيضا لأن سائر وسَائل النقل ليسَت في نظر الطورُّوبرياندييَن سِوى فصائل حمير: فالدرَّاجَة العادية، مثلا، يُسمونها «حمار الرّيح»، والدرَّاجة النارية «حمار الدُّخَان»، والبَاخرة «حمار الماء»...

وراء إطلاق الطورُّوبريَّاندِيّين تسمية «الشيطان» مجازا على الحمار تختفي «فلسفةٌ» بكاملها قادَهم إليها تأملٌ طريفٌ وذكيٌّ في التبَاسِ التَّرَائي الذي يُسَلطه هذا الكائنُ على رائيه مِن بعيدٍ: فهو حينما يكون مقبلا يأخذ هيأة كَائن غريبٍ جدّا: رأسٌ تدلى تحته مُباشرة سَاقان طويلان دُون أن يكون لذلكَ الرَّأس صدرٌ أو بطنٌ، ولذلكَ فهُم يُطلقون عليه «اسم العُلويّ». وحينما يكون مُدبرا يأخذ أيضا هيأة كائن غريبٍ لكنه مختلف عن الأوَّل: يتراءى بهيأة مُؤخِّرَةٍ تدلَّى تحتها مباشرة ذيلٌ وساقان دُون أن يعتليهما بطنٌ ولا رأسٌ، ولذلكَ يطلقون عليه نعتَ «السُّفلي». وعَلى أساس هذا التقابُل الأولي يُصَنِّفُ الطورُّوبريَّانديُّون جميع كائناتِ العَالم وأشيائه، ويضعون كُلا منها في مَكانه المناسب بكيفيةٍ فضلا عن كونها تجعلُ من هذا التقابل أبا التقسيمات لأنَّ ما مِن كائنٍ أو شيء إلاّ ويجدُ موضعا لهُ في رأس حمار أو مؤخرتهِ، فضلا عن ذلكَ تجعلُ الحمارَ يلعبُ دَورا حاسما في تنظيم الفضَاء والعَلاقات

الاجتماعيةِ ويمارس سُلطة قوية تجعله أحدَ المداخل الأساسِية لفهمِ المجتمعِ والثقَافة الطورُّوبريَّانديَّين.

ركبتُ أولَ حمار اعترضَ سبيلي، إلاَّ أنني مَا امتطيتُه حتَّى استعصى عليَّ، في آن واحدٍ، قيادته والنزول منه: فعندما آمرُه بالسَّير يقفُ، لكن عندما أستعدُّ للنزول من ظهرِه، بعدَ أن يكون قد توقَّفَ، ينطلقُ ثانية؛ حينما أسَوِّي جَلستي لكي يُواصِل سيره، بعدَ أن يكون قد استأنفَ سيره، يتوقفُ ثانية، وحينما أتهيؤ للنّزول ينطلقُ من جديد... وبذلكَ استعصَى عليَّ البقاءُ كما استحال عليَّ النزُولُ. وهُو وضعٌ مفزعٌ - لأنَّ الدابَّة كانت تميلُ بينَ الفينة والأخرَى ظهرَها إلى الأرض كأنَّها ستنفضني - لم أملك أمامَهُ سِوى إطلاق صُرَاخ مُرعب. غير أنَّ لا أحدَ من المارَّة بادَر إلى إنقاذِي وكأنَّ صُراخي لم يكن سِوى صمتٍ مُطبق... ولم يُنقذني من ذَلك الوَضع إلا صَبي أرسَل من فوق حماره إشَارَة بعينه وأنفِه إلى «حماري» فانطَلَقَ بي هذا الأخيرُ جاريا كالرِّيح. أصَابني دُوار من شدَّة السُّرعة فلم أصح إلا والحمارُ قد نفضني في سَاحة بمنزل الرَّاهب الذي أوجَعَني ضربا في السَّابق، وتوجَّه نحوه جَاريا وهو يُبَصْبصُ كجروٍ صغير.

*

* *

ما أن رَآني الرَّاهبُ حتى ضحك إلى أن استلقَى على قَفَاه ثمَّ أخذَ مِخلاة فارغة وقرَأ عليها نشيدا دِينيا، وعلقَهَا على عُنق الحمَار دُون أن

يضَعَ فيها شعيرا، ثم قالَ لِي: «لكَ علينا من اليَوم ضِيافة سبعة أيام يمكنكَ بعدَهَا أن تسأَلنا عما تشاء»

طِوالَ تلك الأيام كانَ الأهالي الطُّورُوبريَّانديُّونَ يتسَابَقُونَ لاستضافتي إلى أن ينشب بينَهُم اختصامٌ واقتتالٌ. وما أن تَطأ قَدَمَايَ منزلَ مُضيفي حتى يَستَدرِجَنِي إلى ساحةٍ ثم يمسِكُ بقطعة فحمٍ فيخطُّ في الأرض خطّا ويُجلسني في رُكن وهو يأمُرُني بلهجةٍ حادة: «هَذَا (مشيرا إلى جهة حريمه) رأسُ حمار وهذا (مشيرا إلى الجهة التي أجلس فيها) مؤخرَة حمار. الزم جلستك هذه داخِل مكانك هذا، وانظر ما يَليك فقطّ واستنشِق منَ الأكسيجين مَا يَليكَ فقط. وإن تستدِرْ يمينا أو شمالا تكن تجاوزتَ حُدُودَك، وإن تتجاوز حُدُودَك فلا تظلمنَّ إلا نفسَك»... وما أن أمتثل لأمره حتَّى يُنادي على مائدة كبيرة ويأتيني بماء أغسل يديَّ به ثمَّ يأمرني بالتهيؤ للأكلِ فيما ينصرفُ هو متنقلا بينَ المائدَة والمطبخ إلى أن يملأ صفحةَ المائِدَة بالأطباق والصُّحُون الفارغة والأباريق والكؤُوس الفارغَة أيضا، فيجلسُ بجانبي ويَقرَأ نشيدا دِينيا ثم يمسكُ بين يدَيه دائرةً من الهواء فيقطِّعُها كما لو كانت خبزَة. يمسِكُ الكسرَات الوَهميَّة ويبلل الواحدةَ منها تِلو الأخرَى في الصُّحُون الفَارغة ثم يُعيدُها إلى فمه ويأخذُ في مَضغ الهواء بنَهَم شديدٍ وهُوَ يستضيفني قائلا: «كل ولا تخجَل. تصرَّفْ كأنك بين ذويكَ، كأنَّكَ في بيتِك» فأنصرفُ بدَوري إلى تقطيع خُبزٍ وهميٍّ أبللُهُ في الصُّحُون الفارغَة وأحشُو به فمي ثمَّ أمضغ الهواء ولا أتوقَّفُ إلا بعدَ أن يتوقَّفَ مُضيفي. أثناء مُغادرتي للمنزل أخرُج مُجهداً نفسي في ترسيخ قدميَّ في الأرض كي

لا أطيرَ من كثافة الهوَاء الذي يكونُ بطني قد امتلأ به. ببابِ المنزل يُوَدِّعُنِي مُضيفي بحرَارة كبيرة وهُوَ يسألني:

- ألم تجدْنِي كريما؟

أجيبه دون أن أكلِّفَ نفسي عناءَ أي تفكير:

- بَلَى. بَلَى.

- وإذا، فبلغ ذويكَ ذلك؛ قل لهم كنتُ بين قوم لا مثيلَ لهم في الضيافة والكرَمِ...

- حَاضِر. حَاضِر.

فينصرفُ وهو يضحكُ إلى أن يستلقي عَلَى قَفَاهُ...

خارجَ المنزل أجد دائما طوزُّوبريَّاندِيّينَ أو ثلاثة يَدعُونَني بدَورهِم لشُربِ الجعَّة أو الرَّحيق الإلهي، كمَا يقولون، وهي تأتي على رأس قائمة المشرُوبات الرُّوحية المحبوبَة عندهم، يحبونها إلى دَرَجَة العِبَادَة، ويُدمنونَ شربَها في كلِّ الأوقاتِ. وبذلك يمكنكَ دائما أن تشاهدَ حيثما مَررتَ عَشرات الأطفال والنِّسَاء والشُّيوخ قد تحلَّقوا حول عِمَاراتٍ من صَناديق الجعَّة يلتهمونها وسَط ضوضاءَ من الأناشيدِ الدِّينيَّة والأغاني الوَطنية...

يأتي مُضيفي بعددٍ كبير من صناديق الجعَّة الفارغة فَيمسِكُ قنينة واحدة أو عُلبة ويناولني أخرَى ثمَّ يقرأ نشيدا دينيا ويقولُ لي: «اشربْ على نخبك» فأشربُ الهواءَ إلى أن تنتهي جميع القنينات

والعُلَب لأنهضَ بعد ذلك وأنا أتمايلُ وأقيءُ إلى أن نتقذف أمعَائي أمَامِي...

في اليوم السَّابع استقبلني الرَّاهبُ وهو يرتَدي على التَّوَالي بذلة عَصرية أنيقة وجلبابا صُوفيا ورداءً يشبهُ البرنُسَ ثم استوى على كرسيٍّ كأنَّه سيلقي خطبة بالكنيسة وأمَرَني بلهجةٍ خشنة حادَّة:

- لكَ الآن أن تسألنا عما شئتَ!

- لماذا يُكثرُ رهبانكم من مُعاشَرة الصِّبيَان؟

احمرَّتْ وجنتاه، كأنَّه ضُبطَ متلبّسا، فارتبكَ ارتباكا شَديدا، إلا أنَّه سُرعَان ما استعادَ ثقة كبيرة في نفسِه، فبَادَر صَارخا في وَجهِي:

- أنتَ زنديقٌ!

- أعِرني حمارَكَ

- أعيرُكَ درَّاجتي ولا أعيرُكَ حِمَارِي!

- هَات درَّاجَتَك

- أعيرك الحمَار ولا أعيرُكَ الدرَّاجة!

- أنت بخيلٌ!

ما كدتُ أنهي الكلمةَ الأخيرةَ حتَّى لم أحسّ إلا وعصا تهوَى على ظهري ألحقتْ به وجعا لا زالَ مستمرّا حتى اليوم..

أثناءَ مُغادرتي لمنزل الرَّاهب سمعتُ كلاما عَربيا فصيحا فاستدرتُ إلى الخلف لأجدَ الرَّاهِب يُرَقِّصُ حمارَه على طريقة الأعرَابية القديمة وهُو يُرَدِّدُ بيتها الشهيرين:

يَاحَبَّذَا رِيحُ الْوَلَدْ رِيحُ الْخُزَامَى فِي الْبَلَدْ

أَهَكَذَا كُلُّ وَلَدْ أَمْ لَمْ يَلِدْ قَبْلِي أَحَدْ

في مخرج الزُّقاق شاهدتُ راهبا آخر يجري مثعثرا في بُرنُسِه وقد أمسَكَ كرونوميترا بيدٍ ومبخرة وشيئا يشبه السُّبحَة بيد أخرى، فعلمتُ أن الرَّاهب الأوَّل قد اختلط عليه الأمرُ، فلم يميز بين حماره وواحدٍ من أبنائه فاستدعَى الرَّاهب الثَّاني ليحسِم في المسألةِ...

*

* *

إذا كنتَ بصددِ التَّجوُّل في أحَد الشَّوارع الطورُّوبريَّاندية وسمعتَ خلفكَ صياح ماعز أو خوَار ثور أو نهيق حمارٍ فلا تتباطأ في شغر الطّريق لأنك إن لم تفعل لن تفطن إلا وأنت ممددٌ على الطَّريق وقد تهشَّمَ رأسُكَ أو ظهرك. وآنذاك فقط ستعرفُ أن الصِّياح أو الخوار الذي سمعتَه قبلَ ذلك بقليل لم يكن صَادِرا عن بَهيمةٍ كما اعتقدتَ خطأ، وإنما عن سيارة أو شاحنةٍ لأنَّ البهائم الطُّورُّوبريَّاندية لا تصيحُ. وإذا احتججتَ على السَّائق قذَف في وجهكَ مرارا، بغضبٍ وتحدٍّ شديدين، كلمة: «أنتَ زنديقٌ! أنتَ زنديقٌ!»،وأعادَ قذفها كلَّما هممتَ بالكلام. وستكون بالفعل زنديقا لأنَّكَ أوَّلتَ مأثورة طورُّوبريَّاندية

عريقة، والتأويل عندهُم محرَّمٌ. فقد قال لي الرَّاهبُ يوم أمرني أن أسأل ما شئتُ:

«نحنُ قومٌ لا نحبُّ التأويل (...) لقد خلَّف لنا أجدادُنا الكرامُ ما يجعلُ ما من وَرَقة دولار أو سيَّارة أو قاطرةٍ ترُوج أو تدبُّ على وجه البرية إلا وهي مَدينَةٌ لنا بحيازة نُبوءة ظُهُورهما. قالوا: "الحمارُ يُبَشِّرُ بالدُّولار" (...) يوم ظهر الماعزُ لأوَّل مرَّة حسبه النَّاسُ سيَّارة فكنتَ تجدُ ما من عنز إلاَّ واعتلَى ظهرَهُ رجلٌ أو امرأةٌ يُجهدَان نفسيهما في الرُّكوب والسياقة إلى أن ظهَرَت الأكباشُ، ثمَّ ركبوا الأكباش ظانين أنها سيارات، لكن ظهرت الأبقار، فركبوهَا، لكن ظهرَت الحمير... نحنُ قومٌ لا نحبُّ التأويل. نحن قوم لا نحب التأويل».

إن تحريم الطُّورُّوبريَّانديِّيَن تأويل المثَل السَّابق هو الذي يُمَكِّنُهُم من تسمِية الشَّيء الواحِد بأسماء عديدة بكيفيةٍ تجعلُ من السَّهل جدّا المرُور بالشيء والكائن مما هُو إلى ما ليس هُو ومما ليسَ هو إلى ما هُو فعلا. بعبارةٍ أخرى، إنَّ تحريمَ التأويل هو الذي يتيحُ لهم اختزالَ المسَافة الفاصلة بينَ الأسماء والمسمَّيات وجعلها هَشَّة بحيث تصبحُ قابلة للمَحوِ باستمرار إلى أن يظهَرَ الوجه العَاري لكوميديا التسمية لكن أيضا لديكتاتوريتها. فمثلا، إذا صادفتَ في طريقكَ طورُّوبريَّانديّا وهو يسير رُفقة امرأة وصبي وحمار ثمَّ ابتمستَ للصبي، كان أمَام صاحبك خمسٌ وثلاثون إمكانية لتسميتك يستتبع كلاّ منها ردُّ فعل مختلف إزاء ابتسامتك بحيث يمكنه أن يقتلك بسبَبِهَا كما يمكنه أن

يكتفي بالابتسَام لك ومُوَاصَلة سيره. فإذا رام قتلكَ صرَخ بأعلى صَوته إلى أن يتحلَّقَ حولكما آلافُ المارَّة وهو يُردِّدُ: «لَقَدْ رَاوَدْتَ زَوْجَتَهُ! لَقَدْ رَاوَدْتَ زَوْجَتَهُ!». ولن ينفعكَ آنذاكَ أي شيء لردِّ زعمه: فإن قلتَ: «إنما هذا صبيٌّ وهذه امرأةٌ» سخر منكَ المتحلقون جميعا وهم يقولون لك: «لن تفيدَك مُراوغةٌ معنا! إنما هَذه [=الصبي] امرأةٌ وهَذا [=المرأة] حمارٌ»... أمَّا إذا شاء أن يقتلعَ إحدى عينيك فإنه يقفُ فورَ ابتسامك أمَام حِمَاره وهو يَصرُخ في وجهكَ: «أنتَ تزرعُ كراهية الإلهين في جَسَدِي. هَذا أبي...» وبالطريقة نفسها سيؤكد لك كلُّ المتحلقُون زعمه. وإذا لم تقتنع جيءَ بالسَّاحر، وبإصداره إشارة وَاحِدة بإحدى عينيه للحمار سيصرُخ هذا الأخيرُ في وجهك قائلا: «إنما أنا أبُوه! إنما أنا أبُوه!»

*

* *

إذا اعتقدتَ أن الطُّورُوبريَّانديّين يعيشون في فَوضَى التّسمية وسوَّلت لكَ نفسُك بالإيقاع بمن شئتَ منهم فإنَّ الأمر لن ينقلبَ دائما إلا ضدَّكَ لأنّك تسمياتك ستكونُ دائما مجازفاتٍ غير مضمونة فيما لا يجازف الطّورُوبريَّانديُّون أبدا بالكلام، ذلكَ أنه مهمَا يكن الاسم الذي يُطلقه طورُوبريَّانديٌّ ما فإنه لا يخرجُ عن إحدى قاعدتي «الكوجيتو الطورُوبريَّاندِي». تقولُ القاعدة الأولى: «أنا لستُ أنتَ، وإذن فأنتَ هو أنا»، وتقولُ الثانية: «أنتَ لستَ أنا، وإذن فأنا هُو أنتَ». وبدُون تعلم اللغَة الطّورُوبريَّانديَّة يستحيلُ على المرء أن يفهَمَ هاتين القاعدتين.

إنَّ الحروفَ الهجائية الطّورُوبريَّاندِيَّةِ هي أيضا رُمُوزٌ دينية، ولذلكَ يستحيلُ تعلمَها دون المرور مِن الكنيسة. أمَّا عملية التعَلم فتستغرقُ تسعة وتسعين مقاما أو طقسا مُوزعة على عشر سنوات - كما مرَّ بنا - وهُو نفس عدد الحرُوف الطّورُوبريَّاندِيَّة وعدد الكنَائس والأباطِرة الذين تعَاقبوا على حُكم المنطقة، أهمُّها على الإطلاق المقامات 5 و7 و99، وتسمَّى على التوَالي: «مَقَامُ التّطهِير الكلبيّ»، و«مقامُ المرأة المعلقة في الهوَاء»، و«مَقَامُ مُؤَانَسة الحمَار». وتعلم كلّ حرفٍ يستتبعه أحدُ أمرين: التهيؤ للطقس الموالي، أو الإقصَاء النهَائي من التعلم. وإذا كانَ التأهُّل يقوي حُظوظ المتعلم في التثبت في النسَابة الطورُوبريَّاندِيَّة، فإنَّ الإقصاء يفتحُ أمامَه باب الجنون على مِصراعيه. فإذا أقصِيَ الفردُ، مثلا، من الحرف رقم 20 امَّحَى عقله مما سوى عشرين حرفا فَلا يعُود ينطقُ إلا إياها...

يتعلقُ الأمرُ في «طقس المرأة المعلقة في الهواء» بحشو مَسحُوق سِحريٍّ في أنف المتعلم وصبِّ سائلٍ في أذنيه، في غمرة أناشيدَ دينية، إلى أن تنكشفَ له امرأة معلقة في الهوَاء، تتراءَى لهُ حيثما نقلَ عينيه، فيُقَال له: «أتعرفُ من تكونُ هذه المرأة؟، لقدْ ثبّتَ الكلامُ فيكَ بباقي الحواسّ، فاذهبْ إنّكَ تفيضُ كلاما». وما أن يتمَّ الانتهاء بالتلفظ بهذه الكلمةِ حتى يجدَ المتعلمُ نفسَه بهيأة طفلٍ لا يتجاوزُ عمرُه سبع سنوات، وهي السِّن التي يتحتم فيها على كل أمٍّ طورُوبريَّاندِيَّةٍ أن ترفق ابنها إلى السَّاحر كي يحدِّد له المهنة التي سيُمارسُها عندا يصيرُ كبيرا، وعدَد السنين التي سيقضِيها في الحياة، وعدد زَوجاته،وعدد الكلماتِ التي يجبُ أن يتلفظ بها طِوالَ حياته، وكمية الأوكسجين التي

سيستنشقهَا... فإذا قال لطفل: «كن وَزيرا» صَار الطفلُ وزيرا بالفِعل حتى وإن تلقّى تكوينه في مَدرسَة رُكوب الحمير التي لا يتخرَّج منها في الأصل إلا الرُّهبان، وإن قال له: «كن فَاجرا» صَار فاجرا بالفعل ولو كلفَ بإدَارةِ أمِّ الكنائس وإلقاء خطَب الوعظ والإرشَاد فيها... وهَذا هو السرُّ في السُّؤال الذي لا يكف الطورُّوبريَّانديُّونَ عن طرحه على كلِّ ملتحق جديدٍ بالمنطقة اعتقادا منهُم بكونية الممَارسَات السَّائدة عندَهُم...

*

*   *

عندَما يقولُ لكَ الرَّاهبُ: «اذهبْ فإنَّكَ تفيضُ كَلاما»، فإنه يكونُ قد بث سَلفا في مسألةِ إقصائك أو تأهيلك. فإذا أحسستَ عقبَ هذه الكلمة بأن العُنف الجسَدي قد تحوَّلَ داخلك إلى لغةٍ حتَّى أصبحتِ الكلمة المناسبة لجميع المواقِفِ والسِّياقات تنسابُ منكَ انسيابَ الوحي فاعلم أنه قد أهَّلكَ للمقَام الموالي. وعَلامَة ذلك أن لا يجدَ القومُ أنفسهُم أمَام كل كلمةٍ تتلفظ بها إلا كمَا يجدُ الطّائر نفسه في قبضةِ فخٍّ. فإذا رَفعُوا، مثلا، سِعر مواد كشفرة الحِلاقة والخبز وجدتَ نفسَك قد عمدتَ إلى إهمال اللحية وأكل الهوَاء، وإذا استعَار منكَ طورُّوبريَّانديٌّ مبلغا ماليا مُهمّا ثمَّ رحَل نهائيا عن المنطقة دُون أن يُسَدِّدَ ما عليه من دينٍ وأردتَ الانتقامَ منهُ اكتفيتَ بإرسال كلمةٍ واحدةٍ لهُ مع رسُول، فمَا يتلقاها غريمك حتى تبترَ إحدَى عينيه أو رجليه، وإذا ضُبِطتَ متلبسا فوق امرأةٍ أو حمار ليسَا في ملككَ قلتَ،

مثلا، «إنما هذه [= المرأة] حمارٌ، وهذا [=الحمار] أبي... فلا يتردَّد القومُ لحظة واحِدة في تصديقك. والسَّببُ في ذلك كله هُو أنكَ تكونُ حينئذ تتكلمُ من عُمق التّاريخ واللغة الطورُوبريَّانديَّين: فاللحية عنوان مُصنفاتٍ تاريخيةٍ خاصَّةٍ بحقبةٍ تاريخيةٍ بكاملهَا، كما الأكسيجين، والمئزرُ، والقبَّعَة، والهوَاءُ... عناوين لمصنفاتٍ تاريخية خاصَّةٍ بحقب تاريخية أخرى، ذلك أن الطورُوبريَّانديُّون لا يكتبونَ التاريخ بتسجيلِ تعاقب الأحداثِ والوقائع، وإنما يُدوِّنونه بأحوال الجسَد والمعِدة والطبيعَة خِلال حكم كلِّ إمبراطور: فحينمَا صعَدَ الإمبراطورُ الأوَّلُ فرضَ إهمال اللحية فأهمِلتْ إلى أن جاء الإمبراطورُ الثاني فحظرها وأمرَ القومَ بارتداء القبَّعة، ثمَّ قال: «السَّمَاءُ سَودَاء» فظلت سَودَاء إلى أن أسقطهُ الإمبرَاطورُ الثالث فقالَ: «لا. ليست السَّمَاءُ سَودَاء، بل هي بيضَاء» وأمرَ النساء بارتداء المآزر وفرَضَ على الرِّجال أن يرتدوا التنوراتِ القصيرة، ثمَّ جَاءَ الرَّابع فقال: «اذهَبوا فأنتم العُرَاة» فنبذَ القومُ المآزر التنورَات وجابُوا الأرضَ عُراة حفاة إلى أن جاء الإمبرطورُ السَّادسُ وأمر النسَاء بارتداء التنوراتِ القصيرة والرِّجال بارتداء المآزر والخفين... والكلمة هي مجالُ حِس لا يُضاهيه إلا الحسُّ الجمَالي. وإذا كَان هذا الحسُّ هو السَّبب في عودَة غريمك - فور تلقفه كلمتكَ - إلى المنطقة أعمى أو كَسيحا، فإنه الحسَّ اللغويَّ نفسَه هوَ الذي سيتيح لجميع الأهَالي أن يتعرَّفوا حَدسا على القصَّة بكاملها بمجرَّد مُشاهدتهم ذلكَ الغريم ولو لم تطلع أحَدا عليهَا، وبذلك مَا أن تسأل أحدهُم، حتى وإن كان مجرَّد طفل لم يتجاوز عُمره السنتين، عن صَاحب العَاهَة حتى يوافيكَ بتفاصيل القصَّة بشكل يجعلك تشكُّ فيما كان ذلكَ

الطفلُ هو أنتَ أم أنك هو... يقول لك: «لقد استعارَ منكَ مبلغ كذا دولار، وفرَّ من المنطقة فأرسلتَ - أنتَ - إليه كلمة مع أوَّل حمار هواء يُقلع، فما أن تلقّاها حتى عاد أعمى كَسِيحا...» وهذَا ينطبقُ مع المثلين الطورُّوبريَّاندِيّينَ: «لا إجماعَ خارجَ الإجماعِ»، و«يستحيل أن تخذع طورُّوبريَّانديّا أو تغبنه».

إن هذا الحسَّ اللغويَّ الدقيق هو الذي يجبر الطُّورُّوبريَّاندِيّينَ عَلى الاستقامة في السُّلوك وتجنب الكذِب والسَّرقة والوشاية والنمِيمة والتطَاوُل على ممتلكاتِ الغير. كذلكَ، هذا الحسُّ هو الذي يُفسِّر النباهة الكبيرة للطورُّوبريَّاندِيّينَ في التكلم بجميع اللغَات الأجنبية فِطرة ودُونما أيّ حاجة لتعلمها أو المرُور بالمعهد العالي للغات الأجنبية، وبذلكَ يمكنكَ دائما أن تشاهد طِفلا لم يتجَاوز عُمره سبع سنواتٍ وهو يجرُّ وراءَه قطيعا كامِلا من ذَوي البشرة البيضَاء يدلهم وسَط غاباتِ النخيل والمآثر التاريخية مُكلما كل واحدٍ منهم بلغته الخاصَّة بظواهرها وبواطنها...

*

* *

مَا ترَاءت لي المرأة المعلقة في الهوَاء حتَّى أصبحت فاتوراتُ الضَّرائب تنهملُ عليَّ كالشتاء إلى أن خَامرني الشكُّ فيما إذا كان الرَّاهِب قد أخطأ في إنجاز الطقس فحوَّلني إلى ضريبةٍ بذل أن يحوِّلني إلى طفل عمرُه سبع سنوات: فمهمَا كنتُ أفعل إلا وكانتْ تأتيني ضريبةٌ على ما فعلتُ، تأتي على شَكل فاتورة مملوءَة بإحصائياتٍ في منتهى

الدقة،لم أعلم إلا فيما بعد أنهَا كانت من إنجاز آلاتِ رقابة شديدة الحسَاسية معلقة خفية في سائر الأمكِنة العُمُومية والخصوصية. فعندمَا كنتُ أغادرُ المنزلَ كان الجابي يأتيني بفاتورَة ضريبة الخرُوج وقد قيّدَ عليها، فضلا عَن الثمن، طول المسَافة التي مشيتها، ومجموع المسَاحة التي شغلتها قدَمَاي من الطريق وأنا أمشي، وكمية الأوكسيجين التي استنشقتها... وعندَما كنتُ أعرض عن الخروج كانت تَأتيني ضريبة القعُود وقَد قيّدَ عَليها، بالدِّقة السَّابقة، مجموعُ السَّاعات التي قضيتهَا في المنزل، سَاعات اليقظة وسَاعات النوم وسَاعات التفكير... حينمَا كنتُ أهملُ اللحية كانتْ تأيني ضريبة الإهمَال، وحينمَا أحلقها تأتيني ضَريبة الحِلاقة. ولما نَفق كلُّ ما كنتُ أملكه في الضَّرَائب أكلتُ الهوَاءَ فجاءت ضريبة الهوَاء ثمَّ بعتُ ملابسِي فجاءت ضريبة العَراء...

*

* *

آه الآن فقط أدركُ حجمَ الغباوة التي كانت تلفني وأنا أبذر مَا أمكله! فقد كانت التفاتةٌ واحدة إلى المرأةِ المثبتة أمَامي كافية لإخراجي من ذلك المأزق. اتجهتُ مُهَرولا إلى مكتبِ الضرائب وقلتُ للجابي: «إنني ضريبةٌ فضعوني في الصُّندوق»، وما أنهيتُ هذه الكلمة حتى انبعثَ الرَّاهب أمامي كالعفريتِ، ثمَّ قال وهو يُشير إلى الهوَاء: «أتعرفُ من هذهِ المرأة؟». قلتُ: «أيُّ امرأة؟ إنني مَا أرى إلا حمارا»، فضحكَ إلى أن استلقى عَلى قفاهُ ثمَّ قال لي: «هنيئا لكَ. فقد تأهَّلتَ لمقام مُؤانسَة

الحمَار»، ثمَّ أخرجَ من جيبه قارُورة صغيرة وقالَ لي: «والآن هَاتِ عينيكَ كي أبللهمَا بالسَّائل السِّحري»...

المحتـوى

المادة	ص
نحو إثوبويطيقا طروبرياندية	4
سفر المأثرات (1)	29
سفر المأثورات (2)	45
سفر المأثورات (3)	59
سفر المأثورات (4)	79
مقام مؤانسة الحمار	97

صدر للمؤلف

نصوص سردية:

- **حديث الجثة** (نصوص سردية)، مكناس، منشورات علامات، 1996.
- **كتاب الفقدان، مذكرات شيزوفريني**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **سِفْرُ المأثورات**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **بالعنف تتجدد دماء الحب (رواية)**، مكناس، مطبعة سندي، 1998.

دراسات:

- **ذاكرة الأدب في الشعر والرواية والمسرح** (دراسة)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999..
- **الإسلام والسحر**، الرباط، منشورات الزمن العدد 16، 2000.
- **هوامش في السحر** (دراسة)، القاهرة، وكالة الصحافة العربية، 2002.

ترجمات:

- **الفرنكوفونية والتعريب وتدريس اللغات الأجنبية في المغرب** (ترجمة، المؤلف: الدكتور المصطفى الغربي)، مكناس، مطبعة سندي، 1994.
- **أبحاث في السحر** (ترجمة، المؤلف: جماعي)، مكناس، مطبعة سندي، 1995 / إفريقيا الشرق، 2007.
- **لغة العلاج والنسيان، دراسات في ألف ليلة وليلة وقضية «الآيات الشيطانية»** (ترجمة، المؤلف: جلبير غرانغيوم)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.
- **التربية والحداثة** (ترجمة، المؤلف: الدكتور المصطفى شبَّاك)، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1998.
- **السحر من منظور إثنولوجي** (المؤلف: جماعي)، مكناس، مطبعة سندي، 1999 / إفريقيا الشرق، 2009.

- **الدولة والأخلاق والسياسة في السياق العربي الإسلامي** (ترجمة، المؤلف: الدكتور حميد الدليمي)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.
- **اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي** (ترجمة، المؤلف: جلبير غرانغيوم)، مكناس، الفارابي للنشر، 1995 / إفريقيا الشرق، 2009.
- **الأدب الرقمي** (ترجمة، المؤلف: جماعي)، الرباط، الدار المغربية العربية للنشر والطباعة والتوزيع، 20016.